البشير الدامون
جديد بدف®
jadidpdf.com
هديل
سيدة
حرة
رواية
المركز الثقافي العربي
WWW.JADIDPDF.com

البشير الدامون

هديل

سيدة حرة

نُشر هذا الكتاب بدعم من
وزارة الثقافة

المملكة المغربية

وزارة الثقافة
ⵜⴰⵎⴰⵡⴰⵙⵜ ⵏ ⵜⴷⵍⵙⴰ

الإيداع القانوني
2015MO1861

الكتاب
هديل
سيدة حرة

تأليف
البشير الدامون

الطبعة
الأولى، 2015
عدد الصفحات: 192
القياس: 14 × 21
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9981-72-016-9

الناشر
المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 - 0522 307651
فاكس: 305726 522 212+
Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت - لبنان
ص.ب: 5158 - 113 الحمراء
شارع جاندارك - بناية المقدسي
هاتف: 750507 01 - 352826 01
فاكس: 343701 1 961+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

البشير الدامون

هديل
سيدة حرة

رواية

أنا الحرة، عربية مغربية قشتالية سليلة زواج عربي إسباني بين أمير إمارة شفشاون بعَدْوَة المغرب، وسيدة قشتالية من عدوة الأندلس. أجمع بين جاذبية الشرق وحرارته، وجمال الغرب ورقته، وبين عذوبة رياح جبال الريف وقسوتها، وليونة أوراق زيتون تلال الأندلس وعطر أزهار جنائنها.

ولدتُ بشفشاون بعد شهور من سقوط غرناطة، حمامة مدن الدنيا كما كانت تسميها أمي. أطلق عليّ والدي اسم الحرة تيمناً باسم وحزم أم أبي عبد الله الصغير «التشيكو» آخر حكام غرناطة، المرأة التي عملت على توطيد حكم ابنها على المدينة في البداية ووجَّهته ليجابه الصراعات والأطماع، وبحنق كبير واجهته في اليوم الثاني من شهر يناير 1492، وهو يبكي ويسلِّم مفاتيح المدينة للملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا. نهرته أمه «الحرة» ساعتها بقولتها المأثورة:

- أيها الصغير، استهنتَ بنصائحي لأنني امرأة، فلماذا تبكي كالنساء مدينة لم تعرف كيف تحافظ عليها كالرجال؟

سنة مولدي وأيام طفولتي الأولى كان أهل أمي ينشدون أغاني الاحتفال والنصر، ويشعلون ناراً للفرح والابتهاج بجمرات النيران التي أحرقوا بها أهل أبي.

من تبقَّى من أهل أبي ظلوا يندبون، يحفرون قبوراً للمغيَّبين من أقاربهم، لكنها كانت تُردَم فارغة، لأن معظم المفقودين منهم أُحرقوا أحياء، أو أُغرقوا، أو أُلقي بهم جماعات في حفر.

وأنا أحبو في الحياة وأنحتُ محاولاتي الأولى في التحليق، وأُقَوِّمُ خبط أجنحتي، ظلّ أهل أمي يواظبون على تشريد أهل أبي وإقامة خوازق ومحارق لهم، وعلى التفنُّن في تطوير الماعون لتعذيبهم.

واصلت الحياة وأنا، كما كان يصفُني خالي مَرْتين، حمامة يتنازع تمزيق جناحي انتمائي لأهل أبي المسلمين وانتمائي لأهل أمي المسيحيين.

جدتي من أبي، دأبت كلما التقيت بها، على ترتيل وصيتها المقدَّسة عليّ حتى حفظتها عن ظهر قلب:

- منذ الأزل وأسلافنا من بني دمنا يُحَدِّثُون عن حمامة الحمائم المنتظرة، يقولون إنها يوم تظهر من على قمم الجبال، أو من خضم أمواج الليل والبحر، أو من بين زوابع الهلاك، وعواصف المخاطر الآثمة، وتتكلم وتنطق درراً، تتوقف شرور الحروب عن افتراس فرح القلوب، ويكفّ انتماؤنا عن حرقنا. يعمّ الدنيا نور رباني ويُنْثَرُ الحب. قوة الحب ستسبي القلوب، فتتخلص من الشر، ويبلغ البشر سنّ الرشد، ويحيون في سلام في انتظار العبور إلى السلام الأبدي.

ثابري على الحلم فناموس الحياة وعدَنا بأنّ الحمامة ستحضر، ستنطق وحياً ليحرّر الإنسان ممّا يكبّل به صدره من أحقاد وخدع، خدع له قاتلة وهو يستميت على حراستها وإحيائها.

أنا قضيت عمري أعانق رؤياها، وأنت منذورة لمواصلة

الحلم... هيئي لها حضناً في قلبك، حلِّقي وارتقي وراءها، تقرَّبي إليها فحتماً هي ضاقت بِصَمْتها وستتحرَّر مما في جوفها وسريرتها. ستستجيب لاستعطافنا، ستأتي... ستأتي ببشائر الزمن الآتي.

كوني سيدة حرة، ثابري على حلمك... لا يُرجى خير ممّن لا يعرف قدر الأحلام... طوبى للحالمين ولو صُلبوا... طوبى للحالمين...

بقامة أطول بقليل من شجرة الورد البري الأحمر، وأعلى من شجيرة البلوط الصغيرة أتسربل في الذهول والرعب، وأصوات حادة تتلاطم في أذني. أرتعش، الرياح قاسية، السماء كتل سواد تطلق زخات مطر. الليل خالٍ من النجوم. أسياخ الضوء تقطع الظلام الدامس ولا تستقر على شيء. صراخ وعويل... أرمي عيني إلى ضوء سراج تحمله عمّتي الْمُخَنْتَرَة، يتلاعب الريح بنور فتيلته كما يتلاعب بوجهها. ملامحها تغيب وتظهر بين تقاطيع الظلام والنور وهي تصرخ:

- الله... الله... عْلَى الحاكم. الله... اللهْ عْلَى مُولاَيْ عْلِي بْنْ الرّاشِد.

في مدخل القلعة كان الحاكم أبي يستند إلى ذراعَي رجلين، تقاطيع وجهه تختفي بين أضواء القناديل المشتعلة المطفأة. يفاجئني وجهه ملطخاً يقطر بالوحل والسواد، وهو يعضّ على شفتيه، ويئنّ من ألم يمزِّقه. أجلسه الرجلان في مدخل دار الإمارة بالقلعة، هَمَّ بالوقوف وهو يحاول أن يرسم على وجهه

سمة الثبات، سقط، عاود الوقوف بصعوبة، وهتف بكلمات تخرج بعنف مع أنات من بين أسنانه:

- أسرعوا ... هرِّبوا النساء والأطفال إلى الجبل.

عاد يرفع صوته ونظراته جَزِعَة تتابع حمل الجرحى من رجاله:

- النار للكافرين والجنة للصابرين...

كرّر الرجال والنساء الكلمات بأصوات يكسرها الريح والبرد والجزع، وهم يسرعون بإدخال الجرحى إلى داخل القلعة، ويستعدون للرحيل.

انطلقت عمتي، ودموعها تنزل على خديها، تشجّع مرة، وتوبِّخ مرة أخرى النساء الباكيات الخائفات... وليمة ولولة.

ثلَّة من الرجال تمترسوا خلف منافذ وكوات أسوار المدينة وعلى سور القصبة، أعدوا أسلحتهم وجهزوا المدافع بحشوها بالبارود والكور.

عدد من الخيول مجروحة. الريح والمطر يعبثان بملابس الرجال والنساء ويصفعان وجه الدنيا. الأجساد تقطر كأنها غطست للتو في البحر.

علا صوت رَحُومْ زوجة قائد المائة بهلع في النساء القريبات منها:

- أخبَرَني زوجي أنهم خَلقٌ كثير، يحملون بنادق ورماحاً ومدافع وسيوفاً وشواقر تقسِم إلى نصفين، وجوه بشر وقلوب

وحوش... رجالنا وصلوا متعبين من مواجهتهم... وقد لا يستطيعون صدّهم... سيذبحون كل أهالي المدينة...

نهرها والدي:

- اصمتي، كلامك يرعب الناس.

أضاف بكلمات تتمزّق من بين شفتيه:

- الرعب وحشٌ كاسر، لا تدعوه يفترس شجاعتكم، بالصبر والإيمان نُرهِبه.

الخيول لا تتوقف عن الحركة، تضرب الأرض بحوافرها، وتحتمي بوجوه أصحابها من زمهرير الريح، وهم يشدّون بقوة على ألجمتها.

دوى رعد هزّ فرائصي. ارتكنت مرعوبة إلى زاوية الغرفة التي تطلّ على ساحة القصبة.

يتواصل صبيب زخات الماء من حلكة الظلام. عبر الضوء المتقطّع للقناديل والفوانيس أرى ساحة القصبة بحيرة يغلي ماؤها. فرقعات ماء تعزف، يعقبها دويّ رعد يثقب الآذان، تسبقه أنوار نازلة من السماء تربط بين الأرض والسماء تفزع أكثر ممّا تنير. كأنه سحر ينفخ في ضباب الليل ورذاذ الماء ليحتلا المكان والنفس.

مدخل الثكنة يقطعه أطياف رجال يعبرون إلى المارستان في خطوات متعبة وهم يحملون الجرحى. يعلو صوت خالي مَرْتِين في انفعال:

- أسرعوا . . . أسعِفوا الجرحى .

داهم الماء الغرفة التي أحتمي بسقفها في دار الإمارة، تبلَّلت الأرض والمفارش. مانعتُ هلعي وتقدَّمت لأقدِّم المساعدة.

امتلأت ساحة القصبة بحمالات الجرحى. كان بعضهم يطلق أنيناً فيما تدحرج أحدهم متمرغاً في الوحل.

القائد «عَرَفَة» يمنع النساء والأطفال من الاقتراب. تسلَّلت إلى المارستان وأنا أستجدي شجاعة بين زعيق المُحتضَرين، وأنات الجرحى وتأوُّهاتهم، ومناداتهم على الله وعلى أحبائهم. . . خَفُتَ أنين بعضهم لِيَغِيبَ بموتهم.

رجل جريح بجسدٍ يرتعش، وجهه يسوِّده سواد غريب. . . جريحٌ آخر يحاول رفع يده الممزقة. الطبيب مُوسَى مرتبكاً مع مساعديه يطلب من المسعفات غلي الماء بسرعة وتهيئ الأدوية وإعداد المناشير.

أجسادٌ ممدَّدة هنا وهناك. على وجوه جرحى لا ينتظرون إلّا الموت كنتُ أطلّ بقنديل. رفعت الغطاء عن وجه مغطّى، كان وجهاً مشطوراً وملامح غيَّبها الدم.

السماء تنشر أضواء ثم تطفئها بسرعة البرق. خالي مَرْتِين يهرول جزعاً بين الجرحى ويقدِّم الإسعافات. توقّف فجأة، رفع عينيه إلى السماء:

- السماء تقطع نورها، لأنها لا ترغب في النظر إلى ما يخلّفه البشر في حروبهم المجنونة من بقايا معجونة بالدم والألم.

بباب المارستان يصرخ والدي وهو يتوكأ على حائط في تعب، يحثّ الرجال والنساء على الاستعداد للجهاد... للموت. يقاطعه الريح، وزخات المطر العاصف فيتشتّت الكلام في فمه. يصرخ ما معناه أننا لا ندين لهذه الحياة إلا بموت واحد. فليكن موتاً كريماً.

أُحْضِرت البغال والحمير. شرعتُ مع النسوة في ملء السّلال والبراميل الصغيرة بالحنطة والزيتون والتين المجفّف.

علَت حنجرة لطيفة بالزغاريد. الزغاريد التي تطلقها نساؤنا لتحتفي بفرحٍ ما، تطلقها الآن لتخوي قلوبها وقلوب المحيطين بها ممّا يَسكنها من جزع. لم يكن لنا خيار سوى هذه الترنيمات التي كانت النساء تُرهب بها الغربان، حين تهاجم حقولنا لالتقاط الحبّ فترة الحصاد. أي غرانيق كانت زغاريدنا تستطيع صدّها الآن؟

نساء يشجّعن بعضهن بعضاً، ويُذْكين الحماس في رجال مكدودين، مرهَقين بالهزيمة والهروب والجراح وقسوة المطر.

تعب مهلك... بعضٌ من هولِ وفتن القيامة، كما كان يصفها لنا أستاذنا الفقيه الهَبْطِي في مدرستنا بالقلعة وهو يحدِّثنا عن أهوال القيامة.

تتأسف عمتي:

- حتى المطامير التي اعتاد أهل القصبة دفن الأقوات بها، لساعة الاحتياج، ولطمرها بعيداً عن أعين الغزاة غمرها الماء.

القائد عبد القادر، مساعد أبي، لم يترجل عن حصانه، وظلَّ يعطي أوامره بانزعاج. الأمر كان قاطعاً، الهروب إلى قمة جبل شفشاون.

هرعتُ إلى جدتي، أخذتُها من يدها:

- هيا، جدتي أسرعي، هيا لترحلي معنا.

دون أن تخفض عينيها من سواد السماء أجابتني:

- ارحلوا أنتم، أما أنا فسأنتظر الحمامة المُخَلِّصَة.

تشبَّثت بأذيال جبَّتها السوداء المبلَّلة وكأنها نقعت في الماء. أبعدتني بلطف، ودون أن تُخفض عينيها، وكأنها ترغب في أن تثقب بهما الظلام، خاطبتني:

- إنني سأنتظرها، ستظهر وستتكلم، كلما عمّ الهلع الكبير كان أمل ظهورها أكبر.

قلت أترجاها:

- جدّتي، لينتظرها من سيظلّ هنا.

- لا، قليلون هم مَن خوَّل لهم ناموس الحياة أن يُترجموا هديلها لبقية الناس، أنا ممَّن وهبني الله هذا السر.

قبل أن أتكلم، أسكتتني، أشارت عليَّ بأنْ أسرع للرحيل وهي تقول:

- ناموس الحياة وعدني، ووَعْد الحر دَيْن عليه. أنا ما عَشيت عيناي إلّا تطلعاً في وهج الشمس، ونور القمر، وعتمة السماء، في انتظار طلّتها.

دخلت عمّتي وخاطبَتها:

- ألا يكفيكِ أنكِ احترقتِ عمراً في انتظارها؟

ردت دون أن تُنزل عينيها من سواد الليل:

- سيف من ضلال يقطع الرؤوس شمالاً ويميناً دون تفريق، وحده حضور الحمامة مَن يوقِفُه عن غيِّه.

أضافت في غضب:

- كم من ضحايا سقطوا في انتظار حلولها الذي تأخّر، لكن كلّ تطلُّع لأملٍ ما إلّا وله ضحايا.

واجهتها عمتي:

- أرجوكِ تعالي معنا، ألم نشبع من الكلام؟

أمالت رأسها في غضب، مدَّت يدها قبضت على كتفها وقالت لها:

- اصمتي، متى كان كلامٌ روحه من عِنان السماء يشبه كلام الأرض؟

شدّت على يدي وصوتها يعلو:

- ارحلي يا ابنتي، وإذا ما قُدِّر لي الموت قبل حضور الحمامة، فاعلمي أنّ قلبي يحدّثني بأنك خليفتي في الانتظار...

وأنا أبتعد عنها صاحت:

- اذهبي خلفها كقرينة لَكِ، حدسي يخبرني أنّ لك من العزيمة ما يسدِّد خطاك.

عاجَلَتني عمتي:

- هيا بسرعة، لا تهتمي لكلامها، فحين ينخر دبيب الشيخوخة عقولنا نهذي.

تحزَّمت عمتي بسيفها، وعلَّقت البندقية على كتفها. أخفَتْ كيس البارود تحت ثيابها، نادت عليّ، قبَّلت يد ورأس أمها. فعلتُ مثلها. قبَضَت على يدي وجرَّتني خلفها تحت قصف المطر.

الأرض والسماء ملتصقتان برداء من ماء. لا السماء تجود بشفقتها وتُوْقِف قصفها، ولا الريح توقِف عراكها مع المطر، وأجسامنا المبتلَّة المرتعشة تحاول الثبات، وتقاوم السقوط، ونحن نحفر بأرجلنا خطوات نحو أعالي الجبل.

الأوامر تُملى علينا مرة أخرى، الوصول إلى قمة الجبل قبل حلول الصباح. قافلة من النساء والأطفال والحمير والبغال والبقر والمعز والمرضى من الشيوخ...

أمشي وأرتعد من البرد. تسلَّل إليّ دفء، تمنيت لو يطول، كان بولي قد تسرب حاراً على فخذي.

تضيء السماء من حين إلى آخر، تهتف بأصوات غامضة مخيفة، ثم تقذفنا بدويها الذي يزحزح قلوبنا ويزعزعنا، يبرق على ما حولنا قبل أن ينفجر علينا غيظ كأنه كان محبوساً في قمقمٍ مارد. ريح ورعد، والجبل العالي يتحدّى محاولاتنا الصعود نحن الممرغين في الهلع والفرار.

علَّقتُ عيني بالسماء، طيف جناحين كبيرين لطائر عملاق

يلفّه ضباب أسود. صرخت بكلّ القوة التي ولّدها فيَّ الرعب والفرح برؤية حمامة جدتي، وحتى أجعل عمتي تَسمعني وأنا أبشّرها بالفَرَج:

- عمتي ارفعي عينيك بسرعة، انظري ها هي الحمامة المُنتَظَرة.

صاحت عمتي دونما اهتمام ببشارتي:

- ألا انفرجي أيتها السماء... فرّج علينا كروبنا يا الله، فرجك يا الله.. فرجك.

...

انفراج لضياء محتشم، فالسماء غربال رمادي أسود يرشّ الماء. أرتعش كيمامة بلّلها القطر. أحجار هائلة، أشجار قصيرة تنبت بينها في فوضى ولا تُمَكِّنُ مَن يصل إليها من درء دلاء المطر. البهائم تتمنّع عن السير. تكلّفت نساء بجرّها، بينما ندفعها نحن الأطفال والصبايا من الخلف ونحن في حاجة إلى من يدفعنا.

نواصل الصعود كقافلة موتى انبعثت فيهم الروح، نتشبّث بالأحجار وشقوقها بقوة مَخافة أن نعود إلى الموت ثانية. الشيخ عبد السَلام يتشبّث بعصاه، يعتصم به الرعب، اقترب منا وهو يرفع صوته عالياً:

- سيذبحون حتى النساء والأطفال إن لحقوا بنا... إلى الجبل. إلى غابة الجبل... اصبروا وكابروا.

كنا شتاتاً والكهوف ما زالت بعيدة. النساء لم يعُدْن قادرات على حمل الصغار ومساعدتهم، ولا على حمل أجسادهن المنهكَة ورزم أمتعتهن القليلة... نتخبط في خطواتنا.

تعود السماء تبرق على أحياء موتى يجرهم القدر كالنعاج، تمزق الريح خطواتهم ثم يلعنهم عويلها، يرتقون قلب جداول من سيل المياه، وتقبض أياديهم على أشواك شجر البلوط بأصابع ينزّ الدم من أظافرها ويمحوه المطر... يتشبثون بما يتخلى عنهم..

أقطع هذا الهول وأنا أصبّر نفسي أنّ ما أعيشه ليس سوى كابوس. يفيقني ألمي...

علقت قوائمُ حصان بين الحجر. تكسَّرت ساقه اليمنى فسقط من وقفته، نزل ضربة واحدة، كاد أن يسحق امرأة عجوز. تركناه منبطحاً وواصلنا الصعود.

نعبر جنب أسوار من صخور كأنها قدَّت من أحجار صلبة. كيوم حشر لا وقت لمدّ يد العون لمن يتأخر أو يتقهقر.

انزلقت البغلة السوداء للكَنْكَاسِي وهَوَت حاملة معها زوجته إلى مهاوي سحيقة. تسحقنا صرخات ابنتها. تجمَّد مَن يسير بقربها من هول الفجيعة. صراخٌ وعويل. المنحدر جدّ عميق ولا قدرة لتقديم أي مساعدة لمن هوت.

ارتمت زوجة الفَقِيه النَّاصر على الأرض، وتشبَّثت بجذع شجرة، رافضة أن تتحرك. ملأت عمتي البندقية بالبارود، أطلقت النار وأمرت بمواصلة الصعود.

بروز صباح شاحب غيَّب الغطاء الأسود الرمادي للسماء. زخات المطر خفّت شدَّتها. ممنوع التوقف. نتسلق الجبل ويكبر الجبل، نصغر والجبل يكبر. تصغر أجسادنا، تضمحلّ وتتمدّد صخور من الكرب في أفئدتنا.

رفعت امرأة صوتها في عنف:

- انتظار الأعداء والموت أهوَن من هذا المسير، كأن السماء أقسمت أن تذيقنا الخوف والبرد وكلّ المهالك دفعة واحدة فبرَّت بقَسَمِها.

تذرو الرياح صوت عمتي وهي تحثّنا على السير... المسلك الوحيد السهل تسلّقه قلب الجبل تخترقه مياه هادرة حاملة معها الحجر والحطب. عرجنا على طريق أكثر انحداراً.

لم نعُد نبالي بعنف ما نعانيه... عادت عمّتي لتطلق باروداً في السماء، وهي تشير تجاه كهوف وسط الغابة.

كانت مستثارة تحثّ الجميع على الصبر وتستغيث:

- يا رب لا تَغِبْ عنا وأرنا في أعدائنا بأس قوتك...

تتوجّه نحونا:

- استغيثوا بالله... إن الله يسمع استغاثات المظلومين.

يوم كنت طفلة أصغر من هذا العمر بكثير قالت لي أمي إن الله الذي يرعانا موجود هناك في السماء.

ألححتُ في السؤال عن مكانه فأجابتني:

- ارتقي بعينيك إلى السماء، هناك... هناك... فوق قمة الجبل.

ارتقيتُ بعيني، وبما أنّ أيّ مسكن لم يظهر لي بها، فقد خلصت إلى أن الله يُقيم في مكان ما غير ظاهر خلف قمم جبال شفشاون، التي نادراً ما نراها غير مكسوّة بالضباب، ومن هناك كان يطلّ علينا يرانا ولا نراه ليعيننا وليحاسبنا على أفعالنا، وليحاسبني إنْ ضربتُ قطة، أو كسرتُ بيضة في عشّ عصفور، أو عصيتُ أمراً أو طلباً لوالدتي.

اليوم وأجسادنا تُدمى والريح البارد يطرشنا ويعبث بجلودنا، والهلع يسرح في قلوبنا، توسَّلت إلى الله:

- هذا كثير... رحمتك يا الله، أعنّا يا الله.

ولجنا الكهوف، عميقة وواسعة. فتحات في سقفها تمكِّن ضوء الفجر الباهت من التسرّب إلى بعض جوانبها. تكوَّمنا نساء وأطفالاً ندفئ بعضنا ببعضنا وانحشر آخرون بين البهائم.

يظهر أنّ السماء كانت تكاد تنفجر من ثقل مائها، قالت فَطُومَة. عمتي ركنت إلى جانبي تستعيد أنفاسها، والبندقية في يدها. جداول دموع صغيرة تنزل من عينيها حين حملقتُ فيها... مسحَتْها وهي تهمهم:

- لا نفع للدموع.

واصلت بصوت مسموع لا أدري إنْ كان ذلك لأسمعها، أم لتخفِّف عن نفسها:

- منذ زمن سيدنا آدم وشعوب الله دائماً تتعرض لمثل هذا وأكثر.

توجَّهَت إليّ:

- هروب مماثل سبق أن قمنا به يوم كان عمركِ بضعة شهور. هاجمنا السلطان محمد الوطاسي عم سلطان فَاسْ الحالي، لم يكن من النصارى، بل كان مسلماً مثلنا. هاجمَنَا بعدما أعلن والدك خروج إمارته عن طاعته، لأنه عقد صلحاً مع البرتغاليين الذين يحتلون عدداً من مدننا.

أضافت في أسف:

- لم نتمّم بعد إعادة بناء ما دمّره من ديارنا...

يتقاطر التائهون المكلومون فرادى وجماعات على الكهوف. البهائم تحتك ببعضها وتتعارك. نساء انحشرن بينها ليَحلْنَ دون اقتتالها.

ترتعشُ لولاَ اليهودية، تردِّد أدعية وتحتمي من بردها ببردي:

- لو انتصر النصارى على رجال المدينة، سيصعدون خلفنا وسيذبحوننا عن آخرنا.

هربت ممّا سمعته وأفصحت عمّا ينوء به بالي سائلة:

- لماذا؟

دون أن تجيب عن سؤالي، قالت وأسنانها تصطك، إن النصارى بعدما احتلوا مدينتها في الأندلس صادروا منزل

عائلتها، أخرجوا كل أقاربها، ثم لاحقوهم في الطريق، بعد أن كانوا قد أعطوا قبل ذلك الأمان لوالدها بالرحيل.

ظللتُ واجمة ألمُّ منديلي من على رأسي وأعصره، وهي تواصل قولها بأنّ أفراد عائلتها أُحْرِقوا، وأن النساء ركب عليهم جنود البابا، ثم بُقِرت بطونهن بالخناجر وقُطِعت رؤوسهن. الرؤوس المقطوعة كانت تُباع لرجال الدولة.

نزل عليّ خوف كالجبل وأنا أهتف لنفسي:

- أمي، التي لم ترافقنا وظلَّت بالقرب من والدي بالقلعة، هي الأخرى نصرانية. نساء القصبة ينادينها بللّا زَهْرَة في حضورها، وبزوجة الحاكم الرومية في غيابها.

وزّع فتات خبز مغمس بالماء على الأطفال. ألوك تلك العجينة في فمي ولا أبلعها. انطلق بعض الأطفال يحاولون مصّ الحليب من أثداء المعز.

خيوط ماء رقيقة تفتّتها الرياح على مدخل الكهوف. نساء يحاولن الاختباء بين قوائم البهائم لقضاء حاجاتهن. ثارت عمتي غاضبة:

- اقضين حاجاتكن براحة على عين الزمان، هو الزمان لم يُرِنا إلا عوراته فلِمَ لا نريه عوراتنا... لا تبخلن في الردّ عليه، أظهِرْنها له في تحدّ.

أضافت في غضب مهيمن:

- لِمَ تخفين عوراتكن وهو فضحها وعرَّاها . . . لِمَ نخجل؟ ارفعن رؤوسكن ولا تكترثن بحياة لم تُرِنا إلا سوءاتها .

* * *

تعب كاسر ونومٌ آسر. غفوت. لم يكن بَوْلي وبَلَلي وراء استيقاظي المبكر. زعيق وسعال. خَدِيَجة كانت مرعوبة تنحني وتقبِّل جبهة طفلها عَدْنَانْ الممدَّد على حجرها، ونوبة سعال حادة تخنقه. سعالٌ ضاجّ جاف، ثم صراخ كصياح الديك لم يفارقه إلا بعد أن فارقته الحياة.

الطفلة رَبَابْ هجرتها الحياة قبل أن ينتصف النهار. رفضت أمها فَاطْنَة أن تتنازل عنها، قعدت تئنّ ماسكة الجسد المسجى بين يديها بوجهٍ بلون الزعفران. نساء يقبضن على أمّ الطفلة المتوفاة، بينما والدة الطفل تخفِّف من لوعتها بالدعاء والغدو والرواح بين جوانب الكهف، قبل أن تطلق العنان لدموعها في صمت.

اندفع ذباب من البهائم، وحلّ يحوم حول الجثتين اللتين وُضِعتا قرب بعضهما بعدما غطّتهما خديجة بمنديلها. قال العجوز عبد السّلام إنّ الذباب يشم رائحة الموت ولو كان الجوّ ماطراً. طنينه بدأ يتعالى حول الجثمانين. تكلّفت مع بعض الفتيات بنشّه. عمتي جثت تواسي المرأتين.

تكريم الميت دفنه على عجل.. حبالٌ رقيقة من المطر تهشّ. نساء يحملن الجثتين على حصيرة تتقدمهن عمتي في

حزم. أتبعهن مع الصبايا والأطفال. بين الصخور والأحجار الملتحمة مع بعضها لم تجد النساء متسعاً لحفر قبر. كان البحث عن حفرة بين الصخور هو الحلّ.

حين كنت أصعد إلى الجبل مع الأطفال، كان يستهوينا البحث عن حفر عميقة بين الصخور نسميها السْوَانِي لنلقي فيها بقطع من الحجر. صوت ارتطامها بالقاع لا يُسمع إلا بعد مرور وقت غير قصير. كان الكبار يحذّروننا من الوقوف على حافاتها. سألت يوماً معلمنا الفقيه الهَبْطي عنها، نصحني زاجراً أن أبتعد عنها:

- إنها مآوي الجنّ.

قلت لعمتي:

- أسيُرمَى بجثتي الطفلين في آبار الجن؟

أجابتني بغضب:

- ستكون روحهما مع الجن أكثر راحة من البقاء مع البشر.

تقدّمت السَّعْدِية، حملت جثة بعد أخرى ووضعتهما في خندق غير عميق. كان الكلّ يذكر الله. رحنا نبحث عن الحجارة ونكوّمها على القبرين.

اللهم إنّ صاحبينا قد رحلا وتركا الدنيا إلى ما عندك، اللهم ثبّت جوابهما عند السؤال وألحقهما بنبينا عليه السلام.

- عن ماذا سيُسأل هذان البريئان؟ علقت السَّعْدِية.

لقد أنعم الله عليهما بترحيلهما إلى ما عنده، هكذا راحت يَاسْمين المسيحية الكتلانية تصبِّر الأمهات.

كانت رُوزيتا أسيرة برتغالية أُعتقت لتُصبح خادمة لعائلة السُّوْرِدُو، تشدّ على صليب صغير بين يديها. نُورَا النصرانية ترسم الصليب على صدرها وتتوسل، ركعت على ركبتيها، ورفعت يديها إلى السماء تتضرع إلى الله.

عدنا إلى الكهوف. نذكر الله. نتوسل النجاة. ندعو بسحق مَن يودّ سحقنا. النساء يردِّدن أدعية لحفظ أرواح أزواجهن، وأولادهن وإخوتهن الذين ظلوا يحرسون القصبة، ويقطعون الطريق على الأعداء للوصول إلينا. أخواي إبْرَاهيم ومُحَمَد كانا قد بقيا كذلك في القلعة.

طالبت عمتي من للّا رَفيعة، امرأة ذات صوت شجي، أن تفتتح وصلة لذكر الله. انطلقت المرأة، والنساء يردِّدن خلفها، في ترديد ذكر يُحيي بعض الطمأنينة في قلوبنا، ويغسلها ممّا التصق بها من وحل الرعب.

عند اقتراب المساء، حاولت النساء إشعال النار بأعواد الحطب التي جمعنها. مبللة لم تشتعل. تعاونّا على النفخ على أغصان خفيفة من الأعشاب كانت بعض النساء يخبئنها تحت أثوابهن أو يجلسن عليها لتدفئتها. انقدحت شرارة النار. قِطَعُ ثوبٍ مجفَّفة ساهمت في إذكائها. سبحان الله، فالنار كما تحيينا تقتلنا وتعذبنا، علَّقت عمتي وهي تحرس الشعلة حتى لا تنطفئ. دفأتنا النار التي تقاسمنا الجلوس حول جمارها، والبهائم خفّ

خوارها وثغاؤها ونهيقها. ذبحت النساء عنزتين. وحدهم الأطفال الصغار والكلاب أكلوا بِنَهَم الجياع.

* * *

نخرج للبحث عن أعشاب يمكن أن تصلح كلأ للحيوانات. ليلتان مرتا قبل أن يحضر رجال من القلعة يحملون بعض المؤن، أخبرونا أنّ العدو لم يلحق بهم ليلتها، وأمرونا بالاستعداد للعودة.

قالت لي الصبية اليهودية:

- تأجّل ذبحنا.

عاد المنكوبون. في الطريق كانت الغرانيق تحجب عنا ما خلّفه انفراج السماء من ضياء. قلت لعمتي:

- تُقلقني هذه الطيور ونعيقها.

رمت بنظراتها نحو السماء ثم واجهتني في صرامة:

- إنني لا أرى شيئاً. اذكري الله في نفسك، وواصلي الخطوات فالشيطان هو الذي يُرينا ما يودّ أن يُفشل به ريحنا، ويُذهب بها. نحن لا نختار ما نرغب في رؤيته وسماعه. تشجّعي، لا تمكّني الشيطان من نفسك. اقرئي المعوذتين.

رجع نعيق الغرانيق يسكنني، لا يرحل عني. تنبعث في طريقنا صخرة كبيرة، تتفرع من جوانبها أحجار مسنّنة كالأنياب ترتفع نحو السماء، ويمتدّ في وسطها مدخل لغار.

وقفت العجوز خَدُّوجة وهي تشير إلى الكهف:

- إنه غار الولي سِيدِي المَخْفِي صاحب الكرامات. هنا كان يتعبَّد الصوفي الناسك مجهول الأصل وهنا يرقد جثمانه الطاهر... روحه دائماً متيقظة لإغاثة الملهوف والمحزون والمفجوع.

النساء يتمسَّحن بأركان الصخرة، يتضرعن بالعربية، والقشتالية، والعبرية والبرتغالية والأمازيغية.

تتضرع عمتي، يعلو نحيبها:

- يا سيدي المَخْفِي، أنت الوحيد القريب منا تَرانا وتَسمعنا وتعلم ما بنا، غوثك، غوثك. أغثنا يا سيدي، أغثنا.

لم تستطع النسوة إخراج إِسْتْر اليهودية من قلب الكهف إلا بعد جهد. خرَّت تنوح وتنادي على ربها ونبيها وعلى كلّ القديسين. مزقت أثوابها وهي تخرّ أرضاً.

انتظر الأطفال والصبايا حتى أتممت النساء طقوسهن. تخلوا عن ألجمة وحبال البهائم وأسرعوا يمرّغون جباههم داخل الكهف في الصخور الملساء. اقتفيت طريق الكبار والصغار. أستنجد بما تبقى لي من جهد، أقصف جدران الكهف بالأدعية، أستغيث بأعلى صوتي إلى دفين الصخرة الذي لا يجيب، أن يُبعِد عنا كل الغرانيق والصقور الجارحة.

* * *

لم يفارقنا الموت لا في الهروب ولا في العودة. الجدة

حَفْصَةُ بدأت تختنق، تمدّ يدها إلى صدرها كأنها ترغب في شقِّه وإخراج ما يمزِّقه في الداخل. تتنفس بصعوبة، تمشي بخطوات ثقيلة قبل أن تتوقف لاهثة. أشارت علينا عمتي بالوقوف وجلست قربها، صرخت في النساء إن كانت إحداهن تحمل حبة ليمون. كانت المرأة كلما اشتدّ عليها ضيق تنفسها، تتناول عصير ليمون تحمله معها في قارورة صغيرة، فيخفِّف من حدة ضيقتها. لكنها لم تكن قد حملت معها إلا الهلع الذي زاد من شدة نوبتها. الضباب المثقل بالماء والبرد الشديد ساهما في خنقها. وجهها صار أزرق، تصاعدت أنفاسها، حشرجة متبوعة بصفير يتصاعد بصعوبة، يعلو معه صدرها في عذاب، وجهها اخضرّ ثم اسودّ. الروح تخمد فيها. جحظت عيناها وحلّ بهما وبها الموت. لم يكن دفنها ممكناً. على بردعة حمار كوّمت الجثة إلى حين عودتنا.

متطيرة ممّا سأجده من محالك في قلعة شفشاون، لم أكن راغبة في العودة. عمتي سلّمتني بندقيتها وقالت لي:

- لقد كبرتِ، دعيها لديك، علّقيها على كتفك. إنك بنت الأمير الحاكم، فستحتاجين إليها... ليكن الله حارسك وحاميك.

لاحظَت شرودي فأضافت:

- ستساعدك على ترهيب كل الغرانيق. أتمنى ألّا تستعمليها طيلة حياتك...

ابتسمَتْ وأضافت:

- . . . وتظهر حمامة جدّتك وتنطق فتريحنا وتريحك.

* * *

قيل لنا إن الهجوم على مدينتنا شفشاون أُجِّلَ. عاد المجاهدون الذين عسكروا على مشارف القلعة وخارجها لحمايتها.

رجع القائد بْنبرَاهِيم بغنيمة من حصانين وأربع بنادق وكيس من البارود وسيوف برتغالية حادة ولامعة، بعدما نصب كميناً لمفرزة من العساكر البرتغاليين.

لمّة جنائزية في المدينة. معظم العائلات قُتل أو جُرح أو أُسر فرد من أفرادها. كل الأيام التي مرّت بعد الهروب نحو الجبل كانت استعداداً لصدّ هجوم مرتقب. كثّف الرجال والنساء والصبيان والصبايا التداريب على القتال.

- خذوا حذركم، فالذئاب لا تترك الجرحى من النعاج ترتاح، سرعان ما تعود إليها. . . يحثّنا والدي وهو يسند عكازه.

كان الرجل يخرج يومياً على أهل القلعة رغم آلام جراحه ليدعوهم لأخذ الحيطة، ويحضّهم على الشجاعة والاستعداد لمباغتة العدو. وينصح:

- لا خيار لنا. خيول وقلوب المجاهدين لم تُخلق لترتاح. الموت الظالم يتربّص بنا في كل لحظة. لنعش بكرامة أو لنمُت موتاً كريماً.

* * *

الوجوه المفلوحة، ورائحة الأجساد المحروقة والممزقة بالحديد والنار لرجال المدينة الذين كانوا قد عادوا مهزومين لم تعُد تفارقني. رائحة احتراق اللحم تسبِّب لي الغثيان. كرهت أكل اللحم من يومها.

سنابك الخوف تفعصني، رفس صفائحها الحديد يهشِّم رأسي. خوفٌ أذكاه خروج إخوتي ووالدي إلى الجهاد بعدما تعافى.

لم تمرّ سوى أسابيع حتى عاد رجاله بخبر أَسْرِهِ.

أبي أسير، والعساكر خرجوا من جديد لمحاصرة مدينة سَبتة، والمدينة القلعة لم يعُد يحميها سوى عدد قليل من الرجال، ودارُ الإمارة لم يعُد فيها من الرجال سوى الشيخ أحْمَدْ. شيخ يرفض عماه وغدارته لا تغادره. لا يتوقف عن الحركة بين دروب وأزقة المدينة حارساً لها ولأهلها، كما كان يقول.

كان يؤكد أنه يشم رائحة الغريب على بعد فراسخ، وأنه لا يضيع هدفه إذا ما وجَّه طلقاته نحوه.

يعبُر بين الدروب يميناً وشمالاً، يتفقد الأحجار والأسوار بيديه وأنفه، وهو يردد:

- همج، همج ، فرج يا ربي فرج، فرج من هؤلاء الهمج.

- همج، همج، لكن الصخور لا تخاف الهمج، تظلّ واقفة وأنا الأعمى جلمود صخر أمام الهمج.

- أعمى أفقدوني عيوني الأربعة، وهل يكون العمى بفقدان العيون؟

عينان فقدهما حين تمّ كويهما بالنار لمّا اعتقله القشتاليون في هجوم على جزيرة بادس من أجل تحريرها، وعيناه، ابناه عبد الرَحْمَان وعبد الهَادِي، فقدَهما خلال معركة لرجالنا في مواجهة القائد البرتغالي كَاسْبْر خَاسِرْطِي وجنوده في شاطئ المْلِيحَة بأصِيلاَ.

عيناي وابناي. . . لكن لكلّ فقدان تعويض من عند الله.

يذكر الله ويردِّد بصوتٍ كالغناء:

- اسمعوا يا أبناء آدم، عصاي التي أتوكأ عليها قد أنخرها وأخرطها وأصنع منها سلاحاً، وقد أخرطها ناياً. يا كلاباً ما جعلتموني أفكّر إلا أن أصنع منها قاذفة بارود.

يمشي وهو يكرِّر أقواله، ثم يرفع عقيرته بذكر الله وأنا أكرِّرها خلفه في نفسي، أروم رحمة ترحمنا، وتُسكن خوفنا وقلقنا أنا وكلّ أهلي المقدَّر علينا انتظار موت فاجع، لا يسعفني عمري وتفسيراتي لفهم أسبابه.

يُنصَح الشيخ أحْمَد بالركون والالتزام بالبقاء داخل بيته، يرفض، ويخرج يتفقّد على طريقته الطرقات والمسالك إنْ كان يعبُرها أعداء. وهو يرفع عقيرته:

- لا موت لشجاع على الفراش. الموت المهين مذلّة. تحمَّسوا للخروج لملاقاة الهمج قبل أن يباغتونا ويغدروا بنا في موت بشع.

يتعب من الصياح يحني رأسه ويواصل بنبرة خفيفة:

- فرج ... فرج.

اذكر الله أيها الشيخ، وادعُ الله أن يرينا بقلوبنا ما لم نره بعيوننا، وهلّل ذكرك بأن نجوماً من قلبك تضيء حلكة لياليك، وأنا أردِّد خلفك أنّ ليلي دون نجوم، وأن قلبي يكتنفه ليل أغبر من السواد.

العَنْ مَن أفقدك عينيك وابنيك، وألعن أنا من أفقَدَني وأهلي الطمأنينة، وجعل أيامنا رقعة من سعير، وجعلني هلوعة من الهمج على نفسي، وعلى أبي وأهلي، وخائفة من أمي على نفسي.

ربي فَرِّجْ عني ممّا صار يفترسني من همٍّ ووسواس، قبل أن تفترسني أهوال الحرب. كلما تهيأ والدي للخروج إلى الجهاد في البرّ أو البحر، إلّا واكتسى وجه أمي قناع من الغمة، وعاودها الحنين ليُبكيها، وألحَّ علي هدير غريب من الروع في رأسي، أما ووالدي أسير فقد سكنني وحش من الرهبة صار يفتك بي ويحبي لأمي.

من المؤلم أن يسكن يافعة في مثل سني صراع عنيف بين الكراهية والحب لأمها، والأشدّ إيلاماً أن تصير أمي شبحُ وحش طائر يرغب في مصّ دمي.

منذ أن عُدنا من مسيرة الهروب، وأمي تباغتني، أحدِّق فيها

بنظرات من فزع غريب. ما قالته لي الصبية لُولاَ اليهودية لم يبرح ذهني، النصارى سيذبحوننا كالنعاج. . . كثير من النصارى يعيشون بيننا في القلعة، وأمي نصرانية.

هلعي تشبَّثَ بي بقوة منذ رجوع رجال أبي مهزومين ولم يكن هو بينهم. كان علينا أن نجمع مبلغاً هائلاً من المال وعدداً من الأحصنة لافتدائه. لم يعُد الرعب يبتعد عني، صار قريناً لي. حين أنشغل عنه تكلِّمني نفسي لتذكِّرني به. سحرٌ يشق قلبي ويزرع صورة مخيفة لأمي تلاحقني في منامي ويقظتي بمخالب من حديد، تنزع حنجرتي وهي تبكي، قبل أن تجزّ رقبتي بخنجر صدئ، وتشترك في التهامها مع وحش أسود على هيأة طير، وأنا أشاهد، وأستغيث.

لم تعُد تفارقني مخالب أمي وجناحا الوحش. . ظلَّت التهيؤات تسقيني من رهاب معذِّب. . الكابوس يعانقني في النوم واليقظة. أرتعش، أتعرَّق، صدري يعلو ويهبط فتختنق أنفاسي وتكاد تذهب مني الروح، قبل أن أخرج مندفعة هاربة من المكان الذي أكون موجودة فيه، فلا يستقبلني سوى وسواسي.

صرتُ أجفل من رؤية أمي، أبتعد عنها وأختلق أعذاراً حتى لا أقترب منها. يغلبني خوفي فأهرب إلى منبع راسْ الَماءْ خارج القلعة، يلاحقني وسواسي الخناس. الخرير اللذيذ للماء يهدِّئني لكنه لا يمحو طنين أشباحي.

ازداد همي يوم عاتبني مَانُولُو المسيحي. كنت أمرُّ بالقرب من دكانه حيث يساعد المعلم الرُّنْدَة في صناعة سروج الخيول

ونعال العساكر، نادى عليّ وخاطبني بالقشتالية التي يعرف أنني أتقنها:

- يا بنت الكاثوليكية، قولي لوالدك إنه ليس سوى مسلم وضيع، يرغب في الوقوف في وجه إرادة الربّ الذي يطهّر الآن الأرض من أدران ملّته. أبلغي سلامي إلى أمك المسيحية، أختي في الدين.

أجبتُه بغضب:

- أمي مسلمة... لقد أسلمت...

قاطعني:

- لا إكراه في الدين، أمك مسيحية ويوماً ستعود إلى أهلها.

واصل بانفعال:

- الجنة لنا، أمّا أهل أبيك فما هم سوى سفاحين وسارقي ديانات.

لم أعُد أردّ عليه وهو ينادي عليّ كلما مررتُ بالقرب منه. شكوته لأمي، قالت لي إن الرجل شبه معتوه. نصحتني:

- لا تهتمي لكلامه، إنه ليس سوى جندي بائس خَبل بعد سجنه، ورفَضَ بعد أن عفا عنه والدكِ أن يرحل عنا ويغادر مدينتنا.

ضحكَت ثم زادت في قولها:

- ربما لا لشيء إلا ليُمطرنا بسبابه.

كلام أمي الرقيق لا يمحو احتراسي الغامض منها. وسواسي يقهرني كجرذ يقرض أسس اطمئناني. كنت كثيراً ما أسمع أمي تُنْعَت بالرومية من طرف زوجة أبي أو من طرف بعض نساء القلعة. أطفال القلعة مراراً تنفلت ألسنتهم فينادون عليّ ببنت النصرانية. مرة سألتني زوجة إمام مسجد المدينة:

- أحقاً أمك مسلمة؟

سحرٌ جعل ذهني يوغل في وساوسه رغماً عني، حين طال غياب أبي. وساوس كأنها تخرج من قمقم تكسر داخلي. ساء نومي، لم أعُد أجد للطعام ذوقاً. حضور أمي وجلوسها وهي مغمومة حول رأسي محاطة ببعض نساء القلعة، لا يهدِّئ من روعي. تفتح النساء فمي بالقوة وتكبّ فيه الشراب المرّ الذي قدمه لي الطبيب.

أنام فما فارقتني «نصرانية» أمي. أستفيق فأجد فقيهاً يرقيني بقراءة القرآن. أحضَرَ لي خالي قساً مسيحياً ليقرأ عليّ تعاويذ تنفِّر الشيطان الذي يتلاعب بإيماني، ويهشّ عليّ وعليه بالصليب وهو يتوعّده، ويهدِّده بعقاب من رب العالمين يحرقه، قبل أن يرشّني بماء بارد من فمه.

الحاخام اليهودي بعدما أوْقَدَ البخور في زيارته الأخيرة لي، انحنى عليّ وشدّ وجنتي بيده ثم نظر في عيني بحدّة وهو يقول:

- يا ابنتي، يقول لنا ربنا في توراتنا إنّ أكثر ما نخاف منه لا يحدُث.

ثم أضاف بصوت حاد:

- لا يحدث، لا يحدث... هوّني على نفسك، وافسحي لها الطريق لتصل إلى الله، عنده شفاؤك ممّا يتخبَّطك من شرٍّ وعُسر.

ضِيْقِي حَبَّبَ لي التفكير في الموت ثم بدأتُ أخاف من الموت. صرتُ أقول لمَن حولي بأنني لا أرغب في الموت. ألححتُ في طلب عمَّتي لتقف إلى جانبي، ربما لتُخيف الشبح الطائر وتُرديه قتيلاً ببارودها، أو لتَمْنَع أمي من قتلي. رافقتني عمّتي لأيام وهي منزعجة من حالتي. شعرتُ بطمأنينة غير مكتملة.

عاد «غُولِي» يسامرني في إحدى الليالي، وأنا بالقرب من أمي التي تعتِّق الحزن على وجهها وهي تدعو الله في غمغمة. قلت لها على لسان طفلة صغيرة مدلَّلة ومرعوبة:

- أستقتُلينني يا أمي إذا حضر عساكر أهلك من إسبانيا؟

عانقتني ودموعها تبلِّل وجهي.

زادت حالتي استفحالاً لدرجة أنني أصبحت أودِّع المحيطين بي وأطلب منهم أن يسامحوني. أنفر من عناق أمي ورائحتها وأتقيأ إنْ حضنتني. أرتمي بين يديّ عمتي. تأخذني أمي بين يديها، تضمّني، تهدئني ممّا يروعني. تكلِّم نفسها:

- نحن لا نخاف من بلوغ الموت، بل من قسوة طريقه.

تطرق رأسها وهي توجه كلامها إليّ:

- والدك أسير وإخوتك على جبهة الحرب منذ شهور، وأنت مريضة. . . إنني على مشارف الجنون. . . هؤلاء الكلاب جعلونا نموت كلّ يوم في انتظار الموت، وهذا هو الموت العسير. . . سعيدٌ هو مَن ينتظره بلا مبالاة.

تدخل عليّ جدتي تضرب الأرض بعصاها، تمسّد رأسي بيدها، ترفع رأسها وتهيئ نفسها للكلام وأنا أفترش دهشة لفكّ معاني أقوالها، أقوال كبرَتْ معي فنُحتَت في دواخلي لتظلّ راسخة عندي كلّ أيام حياتي:

- ما دام الطير لم يظهر لينطق بعد، كل الرزايا تظلّ تتربص بالبشر. انهضي، من غير المعقول أن تتقوقعي في الخوف والألم وأنت منذورة للحلم بالخلاص!

توجّهت نحوي بعينيها الخافت وميضهما، تحسّستني، وهي تقول:

- ما أسميناك الحرة إلا لكي لا يكبِّلك الخوف في حياتك، ولكي تحلِّقي بحرية خلف الحمامة وتجعليها تنطق بخلاصنا. . . . واصلي حلمك. فناموس الحياة وعدنا.

تمّ افتداء أبي من آسريه البرتغاليين بعدد من المسكوكات الذهبية وعدد من الخيول. عاد ليجد ذبولي أقعدني. نهرني آمراً بغضب:

- انهضي من فراشك، إنك تسجنين نفسك بنفسك.

قلت له باكية:

- لا أستطيع، تشلني دوخة . . .

زجرني بتوبيخ حادّ:

- قفي وتمشي. . . موتي واقفة، انتظار الموت في الفراش جُبن.

ثم أضاف قولاً حملته ذاكرتي إلى آخر أيامي:

- ما الجُبن سوى كلب، لا أعرف ما الذي يذكّي نباحه في صدورنا من حين إلى آخر. الموتُ يا ابنتي لا يفرّق بين الجبان والشجاع في الرمي بسهامه. والشجاعة، تدبير حكيم للهروب من وفاة مهينة لا يرضى عليها لا الله ولا العبد، بها نتحرَّر من الخوف ومن موت غادرٍ على السرير، وبها يتقبل الإنسان قدره غير ذليل ولا هلوع.

ظلت كلماته القوية المختومة بابتسامة وديعة، تُبعِد أخيلتي عن الخوف والشياطين وعن كلّ الشرور حين أسترجعها، وأنا أرتّل أدعية وأكرّر الدعاء الذي لقّنته لي أمي:

- لا تُخَلي يا ربي بيني وبين نفسي.

الخطوات الأولى كانت صعبة. بدأت أروّح عن نفسي خارج القصبة، أعدو بين أشجار شفشاون الخضراء تحت الشمس البهية اللاهبة. حكيت لصديقي مُفَضَّلْ عن مرضي وتخوفي القاتل من أمي.

طمأنَني:

- لا تقتل المرأة أبناءها ولو كانت مجنونة.

لا ترحل الوساوس عن النفس مرة واحدة، أحياناً تعود لتزعجني.

أتناسى. أهرع مع مُفْضَّلْ إلى الجنائن والسفوح الظليلة... نلاحق بأعيننا الفراشات والأطيار حول النهر الذي يتمطى بين الكروم... نقفز بين جداول الماء...

علَّق لي الصبي أرجوحة من حبال على أغصان شجرة زيتون برية، كانت الشجرة سامقة على مرتفع يطل على منحدر حادّ من مجرى النهر. أتشبَّث بالحبال، يدفعني فأحلق عالياً يمامة مع الريح...

زارتني عمتي في البيت، سلمتني فأساً وألزمتني بمرافقتها لصيانة الحقول. نار خضراء أضرَمَتْ في قلبي حباً لما يحيط بي، أنسَتْني وجعي وأعادت لي بعضاً من سكينتي.

بدأت أتعافى من مرضي ولو أنّ وساوسي تعود لتنغِّص عليّ هدوئي أحياناً.

وقفت عليَّ في نومي الحمامة بيضاء بأجنحة من نسيم وكلَّمتني بما معناه:

- الخوف للضعيفات، أمّا أنت فعليك أن تهيئي نفسك لأمر عظيم. وطّدي نفسك على مآلي، وارتقي عرش الشجاعة وحلِّقي

يمامة في عنان السماء... قومي سيري مع حلمي أو ارحلي عني مع مهبّ الغياب.

* * *

يعود والدي وإخوتي للجهاد، وأركن إلى حكي أمي يلقّمني السكينة ويدفئ برد الليالي. حكايات تتعمّد من سردها أن تلهينا عن مكاره الحروب، ومكاره النفس. تجمعنا حولها، أنا وأختي غير الشقيقة فَاطِمَة وصديقاتي وتحكي لنا...

يحلو لها الحديث عن بلدتها فِيخِيرِسْ دي لافْرُونْتِيرَا بمنطقة قَادِسْ بعدوة الأندلس، عن طفولتها، عن صبيان وصبايا حيّها، عن شقاوة إخوتها وحبّها لهم، عن خالاتها وأبنائهن، عن أقاربها وعن صباها، وعن رُودْرِيكْسْ اليافع الأشقر وهو يغني لها تحت نافذتها في الليل أغاني تصدح بالحب والمرح، ولون الأشجار، ولون عينيها ولون أزهار شجر اللوز والرمان، وعن ابتسامته التي تجعل زهر الأقحوان يتفتح لها لتسبح في عطره.

تتحدث عن جيرانها الطيبين من المسلمين، وعن زيارة والدي لخالته، جارة عائلتها، وعن إعجابها بأبي، وعن حبها... تبتسم، تضحك وتنطق بالقشتالية في مرح:

- من لا تُعجب بوجه ضارب في السمرة تزيّنه عينان خضراوان؟

تسترسل:

- حب رُودْرِيكْسْ كان حبّ صبية، أما حبّ والدك فكان غرام بنت ناضجة. أحببته وتزوجته.

تتأسف على اشتعال الحروب بين من كانوا أحباباً، فرقتهم وأشعلتهم وحوشاً يذبحون بعضهم بعضاً باسم الدين، وإن كانوا يتقاتلون من أجل منافع وأغراض مختلفة.

ثم تغني لنا بالقشتالية أغنيتها المفضلة عن أشجار الزيتون، والماء الجاري، وعن الحبيب فوق حصانه، أبي، الذي ضبط فتاة، كانت هي، تسبح وتستحم بين جداول النهر فهامَ بها. تضحك، ترتوي عيناها بلمعان نديّ، تدمدم كلمات بصوت خفيض، أسترق منها أدعية لعودة الحبيب - أبي- من معاركه سالماً، وتضرعات لتعمّ المحبة بين أهل زوجها وأهلها.

* * *

لا أنكر أنّ وصول بعض أهل أمي، ومنهم إخوتها وعائلاتهم إلى مدينة شفشاون كان سبباً لتعمّ نفسي مقالب جديدة. ظللتُ حائرة بين أبي وأهله المجاهدين ضد النصارى، وبين أمي وعائلتها النصرانية وأهلها. ما كنت أعيشه ورّثني حيرة وزّعتني بين الانتماءين.

خالي الصغير فِرْنَانْدِزْ مَرْتِينْ أسلم ليصبح قائد قلعة الخروب بـ«جْبَلْ الخبِيبْ»، قلعة يتمركز بها رجالنا ليتصدّوا لهجمات الإفرنج وإعداد العدّة للهجوم.

كنت أحبّ أخوالي كما يحبّ كل الصبايا أخوالهن. لكنني كنت أعزّ خالي الأكبر أكثر للطفه وحنانه. زوجته رُوسَا كنت أباغتها تصلي وتتضرّع إلى الله أمام صليب علّق فوق رأسها في

بيتها. لازمني هو وزوجته في مرضي، يشجعانني، ويحدّثانني عن الصبر، وعن حب الحياة. خالي كثيراً ما كان يحثّني أن أحكي له عن أوهامي، لكنني كنت أخجل أن أبوح له عن تخوفي من أمي، فأتهرّب من أسئلته وأبتسم في ذبول.

تعافيت وكَبُر فيَّ حبي له ومجادلته فيما يتنازعني. أحياناً كنت ألحّ عليه بسؤالي:

- هل حقاً سيقوم أهلكم بذبحنا إنْ وصلوا إلينا؟

يبتسم ويغيِّر مجرى أسئلتي، يحدِّثني بلكنة عربية ثقيلة يتمِّمها بالقشتالية فيقول لي إنه نصراني مسيحي، لكنه لا يستطيع أن يكون مخلصاً لكلّ ما يُتلى عنه. من الصعب أن يكون الإنسان مكتمل الإيمان. كان عليَّ إن رغبتُ في إيمان مكتمل، أن أؤمن بما لا يقبله قلبي وعقلي، أن أؤمن باختلاف الأناجيل، وشطَط الكنيسة وتسلُّط محاكم التفتيش، وبَيْع صكوك الغفران. كم تضرَّعت إلى قلبي أن يملأني إيماناً كاملاً لكنه ما طاوعني.. إنهم يطلبون منا أن نؤمن بما يريدون.

يوماً ألححتُ عليه بسؤالي:

- لِمَ نتقاتل؟

أجابني في حزن:

- لمّا نبتعد عن الله ونتفرغ للشيطان، لا يبقى بيننا سوى الحروب وما تنجبه من موت وتشوّهات وفجائع. كل الأنبياء

زرعوا مشاتل السِّلم والمحبة على الأرض، ولا أدري لماذا أنبتت هذه الأرض حروباً مُهلِكَة... هو طغيان الإنسان ورغبته الشيطانية بأنْ يسحق الآخر خلف هذا.

منذ أن أشهَرَ الإنسان الحرب في وجه الآخر وقعت الخطيئة الكبرى. الشيطان يتلوّى على عقلي أحياناً، ليقنعني أنّ قصة قابيل وهابيل لا يردِّدها البشر إلا ليجد تبريراً لوحشيته. لقد اختلق الإنسان الحرب وأسبابها فعاقبه الله بأنْ جعله أسيراً لها.

أضاف حين لاحظ أنه يشدّ انتباهي:

- الإنسان يسكن قلبه وحش الشرّ والحرب وبرعم الحب، وهما يتصارعان داخله يومياً.

بادرته بسؤالي:

- ومَن يستطيع أن ينتصر؟

أجابني وهو يرسم ملامح البشاشة والوداعة على وجهه:

- من نُطعمه جيداً ويومياً... لنغذّي قلبنا يومياً بالحب، رغم داء الشرّ الذي يحاول الفتك بنا. ألمْ يقُل الربّ بحق أن الأخيار هم من سيرثون الأرض؟

خالي هذا شارك مع رجال أبي في معارك كثيرة. كان يقول إنه لا حاجة له لأن يغير دينه، وأن جوهر إيمانه هو الذي يحتم عليه مواجهة الرعاع من أهل دينه، الذين يرغبون في هدر دماء ضعفاء من دين مغاير لدينهم.

وأسئلتي المقلقة تنمو معي، سألته يوماً متحيرة عن أيّ الديانات التي تملك الحقيقة، لم يجب عن سؤالي وواصل كلامه:

- إنني مللتُ الدماء. الكلّ يدعو الرب ويقاتل باسمه ويناديه وهو يقتل آخراً ينادي النداء نفسه على الرب نفسه. كيف نحرِّر أنفسنا وذاكرتنا ممّا شحنت به من كراهية وأحقاد؟

قبل أن يضيف:

- الحياة جميلة وهادئة، وحدهم البشر مَن يكسر هدوءها.

عاد يوماً من الحرب منكسِر الهمة، مكسور الروح من هول ما رأى وعاش، فقال لأمي:

- دماء كثيرة تُسفك والأرض لا ترتوي، لا ترتوي... يظهر أنها لن ترتوي أبداً..

اقتلعت أمي نفسها من كربها قائلة:

- الله رحيم بعباده، وعلينا أن ندعو بأن تشملنا رحمته الفيحاء.

سألتُه ساعتها:

- ووصية جدتي بانتظار وعد الحمامة يا خالي.

اقتلع بسمة من بين بؤس ملامحه:

- ما عُرِف عن جدتك سوى أنها امرأة حكيمة، وحكمة الحكيم تَصْدُقُ ولو بعد زمن، وبِعُمْرٍ قصيرٍ وَهَمٌّ كَبِيرٍ وحدها الحكمة تظلّ بلسمنا.

خالي فَارَقَه مرحه ورافَقَهُ كلب صغير، يعزه، يداعبه، يربت على شعره، ويقول في توكيد لمن يلتقي به:

- مصاحَبَة الكلب أفضل من معاشرة البشر، إنه يحميك ولا يؤذيك.

أصبح يسير خلف «الزَفَانْ» في الحفلات ويرافقه داخل بيوت أهل المدينة. نحن أهل مدينة شفشاون كنا نحاول الترويح عن أنفسنا بشتى الطرق حتى نتحمَّل هول حياة تضمِّخها دماء الحروب، فلا حياة دون أن نحبّها ونحتفي بها، رغم أهوالها.

يوماً فاجأني:

- سأعمل «زفاناً».

الزفان رجل يعمل على تنشيط حفلات الأعراس في بيت العروس، يحكي النكت، يزين العرائس ويقوم بوشمهن. ينبِّه البنت بإيحاءات وإشارات إلى طريقة التعامل مع زوجها في اللحظات الجميلة، التي يصفها عادة وهو يلمز. فقهاء الدين بالمدينة كانوا يرون في عمله بعض المجون والاستهتار، وينصحون بإبعاده عن الحفلات.

كان خالي يقول إن الإنسان لا يقدِّر نعمة الحياة، وعليه أن يزفّ الحياة والفرح للناس.

أخي إبْرَاهِيمْ لم يكن يرى في تصرفاته سوى محاولةٍ للتفريغ عن النفس، أما أخي محَمَّد فقد عاتبه يوماً بكلام يشي باعتراضه على تصرفه:

- أراك قد بدأت تفقد شجاعة الرجال...

فردّ عليه خالي في غضب موشّى بأسى:

- سأجيبك على لسان حكيم سبق زمننا، ما الشجاعة سوى مراوغة الإنسان لنفسه لينفِّذ أمر الموت بقتله للآخر، وأنا لا أراها إلا خديعة نخدِّر بها قلوبنا حتى نقدِّم أنفسنا والآخرين صاغرين إلى مسلخ الموت.

* * *

صرت أذهب إلى مدرسة القصبة مثقلةً بما يتبقى في ذهني من الجدال مع خالي، هناك أتلهى مع رفقائي. منهم من لم يشمِّر بعد عن ساعديه للخروج إلى الجهاد، ومنهم من جُرح في المعارك، ويقضي أيامه في التعلم في انتظار شفائه والعودة إلى الحرب.

كنا نحفظ القرآن، وندرس اللغة العربية والتفاسير والسنة النبوية، نتعلم الطب والعلوم والرياضيات والشعر والحساب على يد الفقيه الهبطي والفقيه الكِتَانِي وأَكْدِي والحُسْنِي، كل هذا لم يكن ليبعدنا عن دراسة لغات الإفرنج، وفنون وخطط المعارك، وصناعة البارود وماعون المدافع، على يد أساتذة جلّهم من عدوة الأندلس ومن بلاد الترك ومن مدينة فاس.

القائد عيسَى الذي بُترت يده اليمنى في محاصرة مدينة طنجة كان يقوم بتعليمنا قواعد امتطاء الخيول، وفن السيطرة عليها في ساحة الوغى.

كنا نأخذ صنعة البارود وماعون الحرب من المعلم الطّنِيبَرْ، يساعده في ذلك البرتغالي المايِسْتْرو أَلِخَانْدرُو الذي كان قد وقع أسيراً على يد رجال والدي. أبي كان قد خيَّره بين أن يفدي نفسه بأنْ يعلِّمنا خمس سنوات ثم يطلق سراحه، وبين أنْ يظلّ معتقلاً طيلة حياته.

كان الرجل معتدّاً بنفسه وببلده. يحدِّثنا باعتزاز عن صناعة البواخر الكبيرة، وعن صناعة الكتب والماكينات، وعن وصول أهله إلى بلدان ما وراء بحر الظلمات. ردّ عليَّ في تحدٍّ وأنا أكلمه يوماً عن تاريخنا وعمراننا، وعن احتلالهم لأراضينا:

- الزمان يطوي الضعيف من الأمم.

كان كلامه يملؤني تذمراً. لم أجد أمامي سوى معلمي الهَبْطي. حدثته عمّا سمعته من الأستاذ البرتغالي في انبهار وإحساس بالغبن، فقال لي:

- لهم الدنيا ولنا الآخرة يا ابنتي، لهم النار ولنا الجنة.

كنت سأصيح في وجهه أنهم كذلك يقولون الكلام نفسه، إلّا أني علَّقت على كلامه بتمتمة:

- ولِمَ لا تكون لنا الدنيا والآخرة؟

* * *

تذمُّرنا من تبجح أَلِخَانْدرُو يقابله استمراؤنا للطف الأستاذ الطبيب مُوسَى.

كان الطبيب الأندلسي قبل أن يفتتح درسه يرمي برنسه الغرناطي من على ظهره، ثم يرمي علينا لازمته التي لا يفتأ يرددها على مسامعنا:

- ربي ساعدني في أن أسقي قلبي بمحبتك ومحبة خليفتك في الأرض...

دروسه حول الطب والحكمة والعلوم كان يستهِّلها عادة هادئاً وهو يدعو الطلبة إلى الافتتان بالعلم:

- اعشقوا العلم كمحبوب، فهو يفتح قلبه للقلوب المُحبَّة، ويبادلها عشقاً بآخر، مَن دقّ أبوابه ولازم أعتابه يسلبه جوابه وتنفتح له أبوابه وهي نعم الأبواب... ومن تذوَّقه افتتن به، ومَن اقترب منه شغف به... تذكروا دائماً أنه سلوة الأنفاس يخضّب قلب طالبه تبراً.

يعلو صوته:

- رحى الزمان لا تطحن الضعيف من الأمم، كما يقول لكم الأستاذ أَلِخَانْدرُو، بل الجاهل من الأمم، وكم أتخوَّف أن يكون ذلك مآلنا... أخاف أن نواصل العمى، أن نستميت على العمى، فيكون اندحارنا الكبير والاندحار صعب...

وكثيراً ما تندحر نفسية الطبيب، ويولول كالطائر الولوال، وتحمل عيناه بريقاً غريباً ينعكس من غضون كهولة قاسية، تُلقي

بظلالٍ جافة على قلبي. يُداهِم وجهه لون الجبل القاتم، ويداهمنا نحن طلبته أسى ثقيل، تذكِّيه نغمات كمان تتهادى تحت نوافذ المدرسة مع انسياب رقراق لماء العين بين الأحجار.

عازف الكمان هو اليهودي ابن مَيْمُونْ. كان الرجل يقف تحت نافذة المدرسة ونحن نستمع إلى درس الطبيب ويعزف. ساعتها يوقف الطبيب توغله في الدرس ويتوغل في حزنه. لا تعدْ مدرسة القلعة تُسعِفُه، ولا فناؤها ولا ساحة القصبة ليفرِّغ أثقال أشجانه. يرمي برنسه على كتفيه، يؤجل الدرس ويخرج مرافقاً صديقه ابن مَيْمُونْ.

مُوسَى كثيراً ما كان يحنّ إلى رفيقه، إذ ما يغيب عنه حتى ترى الرجل يطوف بين أزقة المدينة وحدائقها، حاملاً معه قربته من الخمر باحثاً عنه.

يتناوب الرجلان على مشروب القربة في الجنانات، فيعودان ثملين إلى ساحة وَطَاءْ الحْمَامْ، هناك يقعد الطبيب، يفترش الأرض، يرفع عينيه نحو السماء يخاطب النجوم ويسألها عن سبب غياب نجمته. يسبّ القرود، يشرب ويلعن.

ويعود من حاله في الغدْ ليواصل تعليمنا، ونعود إلى دروسه حول الطبّ والحكمة وننهل منه ما استطعنا من علوم، قبل أن تجتاحه بغتة حاله من جديد، ويعود يسأل النجوم عن نجمته، ويسبّ أحفاد القردة...

كان الطبيب مُوسَى قد حلَّ عندنا من عدوة الأندلس ممزَّق

الجسد والروح، بعد أن عذَّبه محتلو الديار ثم هجروه. في البداية أرغموه على تغيير دينه. قَبِلَ من أجل نَجْمَتِهِ. لم تكن قد مرَّت سنة على سيطرتهم، وبعد ما أعطوا عهد الأمان لمن يغيِّر دينه، عادوا واتهموه بأنّ اعتناقه للمسيحية كان نفاقاً، وأنه ما زال على دينه.

في سبيل ابنتي الصغيرة المشلولة نَجْمَةَ التي امتحنني الله بإعاقتها، وتحت التهديد بالتشريد، غيَّرت ديني. قلت هو الله وحده يعلم ما في الصدور. استفتيت أنا ومجموعة من أهالي غرناطة ممَّن لم يقدروا على الهجرة، فقهاء الدين في المغرب، أرسلنا لهم رسولاً. فكان جوابهم، لا حَرَجَ على مسلمٍ أجبِرَ على تغيير دينه تحت التهديد. أظهِروا الدين الجديد واحفظوا دينكم في قلوبكم حتى يرى الله في أمركم.

وكان أمر الله مقبولاً.. وجدت نفسي أقيم صلاتي الجديدة وأنا خاشعٌ مع ملكوت الله هو وحده يعلم ما بي.

لكن رجال محاكم التفتيش بالكنيسة ما قبلوا تديُّني الجديد. شكَّكوا فيه. راقبوا كل خطواتي. فرضوا عليَّ أن أدع باب بيتي مفتوحاً ليلاً ونهاراً، منعوني وكلّ مَن كان مسلماً من الاستحمام. بشرٌ يمنع ويهدم الحمامات الخاصة والعامة، أيُّ بشر هو؟

مَن يُعثر عنده على كتاب بالعربية كان يُقتل أو ينفى،

قساوسة ورهبان يأخذون متاعه ويقتسمونه. مجموعة من الرعاع من جيراني، مَن كنت أداوي أمراض أناس من ملَّتِهِم وأسكِّن آلامهم، هم مَن أحرقوا أهلي، وهشَّموا رؤوسهم بأقنعة وكماشات من حديد... عذابات تفوق صلب المسيح... هم مَن هاجموا بيتي في غيابي، قتلوا ابني وأخذوا ابنتي نَجْمَة إلى حيث لا أعلم.

كانوا ينزعون الأطفال الصغار من أهلهم ليسلِّموهم إلى الكنيسة لتنصيرهم، لكن الكثيرين منهم كانوا يُباعون كعبيد.

ليتني أعرف ما الذي فعلوه بنَجْمَتِيْ.

قايضتُ هروبي وزوجتي مع بحَّار من أَلْمِرْيَة بما أملك، قطع بنا إلى عدوة المغرب. ماتت زوجتي في الطريق كمداً.

يطبع سحنته بتهكُّم مرير والدمع يندلق على شعر لحيته:

- نحن قوم علينا أن نُكثر من شرب الماء وأكل الملح، حتى نقدِر على إفراز دموع كافية.

أستاذنا صار يعاني من بعض النسيان، أحياناً كان يُعيد علينا تلاوة درس من كتاب في الطب سبق له أن سرده علينا، نبَّهَتْه يوماً رفيقتي غَيْلاَنَة لنسيانه، فأجابها:

- ليت ربي يجود عليَّ بنسيان شامل... ربما أرتاح.

نسيانه يتجلى أكثر، حتى إننا نشكّ إنْ كان يتعمّده، حين يكرِّر علينا في معظم دروسه قوله عن العلامة ابن خلدون:

- رحم الله يا سامعين شيخنا العالم ابن خلدون، فهو من أدرك بعض الحقيقة حين ذكر بأن الإنسان سليل القِرَدَة.

يضيف وهو يلوك الكلمات من غضبه ويستغفر الله:

- نعم إن هذا المخلوق السفاح لا يمكن أن يكون خُلِق إلا من القردة. حاشى لله أن يكون خلق من القُدْرَةِ. يوحي لي شيطاني أنّ ما ذكره ابن خلدون في كتاباته عن خلق الإنسان من القُدْرَةِ ليس سوى خطأ من ناسخٍ لم يدرِك معارف وحكمة ابن خلدون.

قيدوا يا أبنائي:

- من يحرق شبيهه من أبناء آدم بالنار وكومة حطب وهو حيّ. مَن يشده على خازوق حتى تتمزَّق لحمه، لأنه يسمّي الله باسمٍ مغاير أو يعبده بطريقة مغايرة، لن يكون سوى قردٍ من سلالة قردة متوحشة خاسئة، بل هو همج أبشع من القردة فهي لا تقتل بعضها بعضاً... تتشاجر لكنها لا تقتل... لا تقتل...

سجِّلوا:

- الإنسان حيوان مقيت. الحيوانات تكتفي بإشباع رغباتها من أكل ونوم ومضاجعة، والإنسان يضيف تدمير الآخر. نعم لن يكون هذا البشر الحيوان سوى سليل قردة خاسئة.

ذات درس علا صوت ألمه في مدرسة القلعة وهو ينعي هلاك وموت أحبابه، فتدخَّل الفقيه أَكْدِي يصبِّره:

- كان قضاء وقدراً وموتاً في سبيل الله.

أجابه:

- أنا لا أعارض قضاء الله، لكن الحياة في سبيل الله أَجَلّ، فيها علم وعمل، صلاة وذكر، وأخذ وعطاء ومساعدة وحماية عباد الله... فيها دنيا وآخرة.

* * *

خير صديق من هلَكَتْه مهالك تشبه مهالكك. المعلم ابن مَيْمُونْ اليهودي صائغ الذهب بحي البَيَازِين بغرناطة، أحرقت زوجته وابنته حيتين أمام عينيه على كومة حطب بعد اتهامهما بالسحر... وكل أهل غرناطة يعرفون أنّ تهمة السحر كانت ذريعة للقاتلين ليستولوا على أمواله ومحلات صياغة الذهب.

ابن مَيْمُونْ فقدَ النطق وفرّ هائماً بين الشواطئ، إلى أن التقى ببحّار مسلم هرَّبه إلى شاطئ تَرْغَة. فواجع أسرَتَيْ الرجلين جمعتهما، فجمعهما شراب العنب الأحمر الأندلسي، ونبيذ التين والتمر المغربي، وأحزانهما المعتقة، ويتعتَّق أسى مُوسَى أكثر لحظة خروج والدي إلى الجهاد.

ثملاً من النبيذ والضنى، يتعطر في لباسه الأبيض النقي، يتحزّم بسيفه وبندقيته على كتفه ويخرج إلى ساحة القلعة حين يدقّ نفير الحرب. بعينين حمراوين من الغضب والسهر وقسوة الهزيمة، يتشبَّث بلجام حصان أبي مُقسِماً أنه ما زال قوياً لمواجهة القردة، المردة. يأمر أبي العساكر بإبعاده بلطف عن لجام الحصان، فيعربد الرجل طالباً أن يأذن له في الخروج معه

لمحاربة القردة الجامحة قبل أن يهبّوا لقتلنا.

يترجى:

- ياجوج وماجوج آتون، فلنهبّ لردعهم قبل هبوبهم علينا كالرياح. القردة الكفرة قادمون يا مولاي، قادمون.

لا يقنعه ردّ والدي وهو يهدئه:

- هم وحوش قردة أيها الحاكم لا يقضي عليهم سوى البارود، البارود...

كلامه يدوّخني، يسكُنني على إثره غول من المَقت وأغوال من الأسئلة... قبل أن أصحو على الألحان الشجية لكمان ابن مَيْمُونْ، وهو يفتّت بها كلس قلوبنا، ويشتت كتلة الغرانيق المجتمعة فوق رأسي لتعود تحلّق من جديد، قبل أن تهرّبها وتغيّبها زغاريد النساء المودعات للمجاهدين.

* * *

ينزل الموكب، حوافر تطأ آثار حوافر، يسايره عزف ابن مَيْمُونْ بترنيمات تُوَلِّدُ لذة من ألم غريب ينادي عليّ. يواصل الموكب سيره، يتوجّه الطبيب رفقة صديقه إلى منبع رَاسْ المَاء، يبتعدان بين الأشجار. يواصل الرجل عزفه، يوقظ اللحن شجن جدتي، تظهر تتعثر في خطواتها وتناديني، نسير مع مَن رافقنا في طريق الرجلين، تقبض على يدي بشدّة:

- لنتبع الرجلين. الغناء والموسيقى يساعدان على مواجهة الكرب، وحدهما القادران على التعالي على مآسي الحياة. إنهما

يلهمان القدرة على النسيان ويطربان الأفئدة الليِّنة، ويهدِّئان القلوب الشرسة.

يقذف مُوسَى بصوت رخيم غناء باكياً عن نجمته. يناديها، يصف جمالها، شعرها، حنانها وعجزها، ثم يغرِّد باكياً وهو يحكي أنّ أيادي قردة آثمة سلبتها منه لتغتصبها وتذبحها. عن مأساة ابنته وأهله يغني بكلمات عربية قبل أن يغيِّرها إلى اللغة القشتالية، وكأنّ لغة واحدة لا تُسعفه لنشر غسيل أدرانه. مرّة يقسم على الثأر، مرة ينتف شعره. يلعن الدنيا، يرقص، يستغفر ويبكي، وجدتي تقف قبالتي حجراً صلداً من غمّ.

يتعب ابن مَيْمُون، يوقِف عزفه فيحلّ خرير الماء المندفع بقوة من قلب الحجر، موسيقى تعزف ألحاناً متشابكة من ألمٍ وأمل. يترقرق الماء... وكأنّ القدرة تلحن أصواتها لتلهي قلوبنا عن ما ينخرها من شرور.

* * *

يتوجع أهل شفشاون من هَوْل ما أصاب الرجلين. نرتعب نحن الصبايا ونحمد الله على ما ابتلينا به. نحزن عند خروج الرجال إلى الحرب، عند عودتهم منهزمين وغمّ كالفولاذ على وجوههم، وعلى جباههم حُفَرٌ من الهلع والجراح، ونغتمُّ حين عودتهم منتصرين وعلى وجوههم وقلوبهم فرحٌ مغلف بأسى بليغ.

نخاف من البقاء وحدنا... من عدم رجوع المجاهدين...
نتألم حين تصل قافلة من المهجرين من الأندلس لا يحملون إلا ما يقيهم العري، رجالهم قتلوا، ونساؤهم اغتُصِبْن والصغيرات والصغار تمّ سبيهم في الأندلس، أو تمَّ خطفهم من طرف قطّاع الطرق في عدوة المغرب، ونُصْدَمُ حين نعلم أنَّ قطّاع الطرق هؤلاء مسلمون من أهلنا.

رُقَيَّة كانت جسداً عاريا تستغيث في الغابة حين وجدها بعض الرجال وأحضروها إلى القلعة. كانت حافية القدمين، عارية تماماً قبل أن يدثِّروها.

عادت بيننا تغطي جسدها وتخالط النساء، وعادة ما يفارقها روقها النفسي فتشرع تفصِّل بتفاصيل دقيقة اغتصاب طفلتيها أمام عينيها، بعد أن مزَّق قطاع الطرق جسم زوجها. تحكي، تصفُ، ثم تبدأ بالصراخ، فيعود لها خبالها.

توقف كل مَن تلتقي به، تشدّه من تلابيبه... تقول إن أكبر كَيَّةٍ لها أنّ مَن اغتصب ابنتيها هم مسلمون استجارت بهم. تحكي ثم تتهيأ للعويل. تولول مثلما كانت تفعل وهي تحثّ الرجال المهاجمين على إتيانها هي بدل طفلتيها حين همّوا بافتراس الصبيتين، تترجاهم، تقبِّل تراب الأرض التي يقفون عليها...

تحكي بالتفاصيل كيف شرع الوحوش، كما كانت تقول عنهم، في إنزال سراويلهم. كيف اقتربت منهم وخلعت ثيابها، كل ثيابها وهي تتوسل:

- انظروا إلى ما أعطيكم... أتوسل إليكم دعوا الفتاتين إنهما صغيرتان، صغيرتان...

لم يصغ الرجال لها سمعاً، واصلوا عمليتهم وعويل الطفلتين يمزّق الجبال والأودية والدماء تسيل، ورقية تستغيث في جنونٍ طاغٍ وتمزّق جسدها حين انتهت من تمزيق ثيابها:

- ها.. هو.. جسدي بدون دم...

تعرّي كل جسدها، تستغيث، تصرخ كدجاجة يخنقها مرض القذى... تضحك. هاهو...هاهو ...

حالتها تتكرّر كلما رأت دماً. كلما ضرب طبل مُعلناً الاستعداد للجهاد، وكلما نفخ صوت ريح وكأنه يحمل معه أصوات شياطين تأمر المرأة بالتعري، وإتيان حركات فاحشة تعرض بها كل ممتلكات جسمها، وهي تحاول أن تغري الناظر إليها وتتوسل إليه أن يؤتيها مِن أنّى يشاء ويترك الطفلتين.

تعوي بصوت كالنباح ثم تتوجه نحو الجموع:

- الحيوانات لا تغتصب صغارها. الحيوان لا يغتصب أنثاه، إنه يغويها، والبشر حيوان من قذى دنس يغتصب عوض أن يغوي.

يوم تعرّت أمام والدي والموكب ينطلق للجهاد أمَرَ الرجال بأنْ لا يمنعوها. كانت النساء تزغرد من النوافذ وأمام الفرسان، والأطفال يتباهون فيما بينهم بسيوف وبنادق آبائهم. برزت المرأة على ربوة، تهذي وترقص، تسقط ثم تنهض، ثم شرعت تتعرى ووالدي يمنع الرجال من إيقافها.

كانت تشتم وتلعن وتقذف مَن كانت تسميهم بالأنذال الواقفين بالطوب وبعر البقر، ثم تقذف في حركات فاضحة بأيور الحمير والثيران في سوآت الحاضرين رجالاً ونساء، ثم تسترسل في قذف كرات النار من فمها وهي تتمزق من جنون الغيظ قبل أن تسقط متشنجة.

سقطت بعد أن تعبت من نحيب يجرح القلوب. الرجال واجمون والنساء يأسر الأسى قلوبهن والأطفال يحملقون مندهشين من رؤية جسد عارٍ لامرأة في سنّ أمهاتهم يتخبط من جنون الألم وألم الجنون. صمتٌ أسود خيَّم على الكلّ بعدما صمتت المرأة... هالات من الارتباك على هامات الرجال والنساء والأطفال، والعيون تتغاضى التطلُّع إلى الجسد المسفوح على الأرض، جسدٌ انتهكت أسراره، بنهدين سمينين وشعر يغطي مثلثه ووجه يدهن الخبل والتراب والدموع سحنته اصفراراً ووسخاً.

تقدمت امرأة لتغطية الجسد العاري، فواجهها والدي بوجه يشي بغضب قاهر:

- دعوها تعري نفسها بنفسها، أما نحن فإنْ لم ندافع عن أنفسنا فسيقوم الآخرون بتعريتنا.

ينطلق الموكب على وقعِ حوافر الخيل، وينبعث شَخْمَرَا معتوه المدينة يغطي عينيه بيديه ويتعثر في خطواته خلف حصان الحاكم، يحدِّق في السماء ويخاطبه:

- يا أمير، في الأرض بشر دماؤهم من بول الشيطان...

إنهم ولدوا من بول الشيطان حين استغفل أمهاتهم على الفراش وتبوّل في فروجهن، وهو بذلك يصنع منهم قتلة وسفاحين يجروننا للموت كما تجرّ النعاج إلى مسلخها... حارب مع رجالك سلالة الشيطان.

المجاهدون في موكبهم يظلّلهم ويظلّلنا أسى سماوي... لا طبول دُقّت ولا مزامير زمرت ولا ابن مَيْمُونْ أخرج كمانه.

نهضت المرأة تصيح بعواء خافت كذئبة جريحة، والشمس بدأ يفتر وهج أشعتها... حلّت الغربان مع الغروب، وبداية احمرار غريب لسُحب السماء يدمي الغسق. كانت الطيور تحلق عالياً وتنعق، قبل أن تنطلق تحت السحب تتبع موكب الرجال. فجأة لاحقتها زغاريد علَت كشواظ من نار تفيق المحملقين ممّا يقطع قلوبهم من ضيق، وتوقظني من شرودي خلف طيف الحمامة البيضاء المحلِّقة بين الطيور السوداء، ودم يقطر ويفور من وسطها.

* * *

توالى تهجير وترويع مَن تبقى من سكان الأندلس، وكثُرت الغارات على المهجرين وتجريدهم ممّا يحملونه، وقتلهم وسبي نسائهم حين يصلون إلى عدوة المغرب.

وصلت كوكبة من العساكر إلى القلعة برسالة من والدي، تطلب مني أن أتجهّز وأتهيأ للخروج معهم، لتأمين طريق مجموعة من مهجرين جدد.

كل رجال المدينة القادرين على الجهاد كانوا يحاصرون المدن المحتلة. استعنت بعشرين امرأة بلباس الرجال، معظمهن ممّن تعرَّضن للتهجير وتعرَّضت عائلاتهن للسبي والقتل.

في الطريق لحق بنا رقّاص يُخبرنا بوجوب التوجُّه إلى شاطئ قرية أمْسَا. ونحن نقترب كانت غربان سوداء بعيون صفراء مفزعة تتسابق نحو الشاطئ. قال لي القائد ابْنُ ادْرِيسْ بوجه عابس:

- إنها تشمّ رائحة الهلاك من بعيد.

حلَّق فوق رؤوسنا سربٌ من طيور العقاب. وصول هذه الطيور يدلّ أن الموت قد حصل، فهي تحضر لتستفيد من ضحايا الهلاك. الكواسر تحلّق وتحوم حول جثث لأطفال ونساء ورجال مرمية على ضفاف البحر. جثث قد تكون لغرقى سفينة قُصِفت من طرف الأعداء. النوارس تصيح عالياً ولا تقترب من اليابسة. كان طائر السماء مرتبكاً وقريني نورساً رمادياً ينوح.

قضينا يوماً كاملاً في إخراج الجثث وإعدادها للدفن. قلوبنا مضمّخة بالأسى على الشهداء. عُدنا إلى قلعة مَرْتِينْ، التي كان خالي قد بناها وسمِّيَت باسمه. لم تذُق جفناي طعم النوم طيلة الليل. في الغد واصلنا الطريق على مقربة من الشواطئ. أتطلع إلى البحر بشغف وبُغْضٍ. البحر الجميل الآسر عبرَه يحلّ بنا الموت الفاجع ويغزونا في عقر دارنا.

في طريقنا إلى قرية القَصْرْ الصَّغِيرْ علَت نحنحة الأحصنة. لاحت لنا من فوق تلٍّ أطياف ناس تتحرك. اقتربنا. عيون زائغة

متحجرة تتطلع نحونا. طفلٌ أعرج صلبه الرعب انكمش بعدما يئسَ من الهرب حين دنَت منه خيولنا. نظراته تحمل كل جنون الخوف. رجلان مسنان يتملكهما الهلع. عجوز علت ملامحها ستائر من الجزع حاولت مواجهتنا بشتائم فسقطت. امرأة أخرجت خنجراً من بين ملابسها بيدين مرتعشتين، وطفلة صغيرة تثقب الأفق بأنينها.

زمهرير حزن قابض على أرواحهم وأرواحنا. أرجل حافية وأجساد شبه عارية لا يدثِّرها سوى ما تعلَّق بها من ترابِ خرائب الدنيا. قال لي أحد عساكري:

- وحدها هذه البقايا سرحت، لا غرض للقشتاليين ولا لقطّاع الطرق بها.

تقدَّمت العجوز تثبت خطواتها على الأرض بعكازها، وقد تعرى شعرها من المنديل. خاطبتنا بلغة عربية في لكنتها ركاكة:

- اقتلونا إنْ كنتم رحماء.

أضافت وجسدها يرتعد:

- أريحونا أراحكم الله. ألكم معرفة بطريقة للموت الرحيم تجعلنا نموت موتاً سريعاً دون ألم؟

لاحت لي من قرب جثث ممزّقة، عنقٌ مذبوح وصاحبه يُحتضر. أحد الشيخين يحاول منع الطفلين من الرؤية. اقترب الرجل منا:

- أتوسل إليكم أن ترمونا بالبارود.

جال بعينيه بين أتباعه ثم أردف:

- نحن حثالة الزمن يفتك بنا بين مخالبه، قطّع أشلاءنا أصدقاء وجيران الأمس، ويجهز علينا إخوة لنا في الدين. عجبي من الزمن اللعين. عجبي.

كنت أحاول أن أتشبّث بشيء يحوْل بيني وبين ما يدمّرني، فلا يحلّ سوى ما يدمرني. خفتُ أن أتهاوى من فوق الحصان. نزلت، وجلست. حاولنا إسعاف مَن يمكن إسعافه.

صبري يتهاوى. مساكين هؤلاء، رحلة موت وتنكيل، من منابع تقتيل إلى حيث قدرٍ هالك ينتظر.

لم يعُد لساني يسعفني. نابَ عني أحد الرجال:

- مَن أنتم؟

تكلمت العجوز وإيذان بالجنون يسبق كلماتها:

- نحن مَن هم أقل من الضواري. ألسنا أقل من الضواري؟

تلقي الشمس بشعاع خافت من خلف حجب السماء. حصاني يزفر. بدا عليه التعب. كان علينا أن نلاحق قطاع الطريق قبل حلول الظلام متتبعين أثر حوافر خيولهم، وإرشادات مَن تبقّى من القافلة المنهوبة.

انزاحت الشمس في هدوءٍ تاركة خلفها كلّ هذه القسوة دون اكتراث. قلتُ غداً ستسطع ولن تغير شيئاً أيضاً...

الفقيه الهَبْطِي مرافقنا يلعن المجرمين، ويحثّ على الصبر وتحمُّل مكاره الحياة. صار يكرِّر قولة... الحياة أمانة... الحياة أمانة... حين لم يعُد يجد ما يقوله. تسائلني نفسي:

- أوَليست هذه الأمانة التي نحافظ عليها أقوى منا، وأشرس من أن يتحمّلها جسد ضعيف وعقل ناقص وقلب هزيل؟ ... محكومون نحن الضعفاء بتحمُّل أمانة أكبر منا بكثير.

لاحت لنا مجموعة أفراد على ضفة النهر. تركنا الخيل حتى لا نثير ضجيجاً وتصيّدنا قطاع الطرق. الطلق المباغت للبارود فتَّت من عضدهم. باغَتَنَا أحدهم بطلق ناري. أصيب سَعْدْ أحد رجالنا بين فخذيه. فتكنا بالرجال، وأسرنا ستّة منهم، وحرَّرنا مجموعة من النساء كنّ مربوطات مع شاب في مقتبل العمر.

شرع الهَبْطِي يقرع ويلوم مَن أسر مِن قطاع الطرق على تنكيلهم بالأبرياء. اغتاظَ الفقيه حين ظلَّ زعيم المجموعة يرمي بعينيه بعيداً، وكأنه لا يرغب في سماع ما يقوله له.

أرسلنا الجرحى والنساء إلى القصبة مع مجموعة من الجند. الحرب تجعل أسوأ ما في البشر من خبث وشرّ يطفو. مرافقنا القائد ابْنْ اذْرِيسْ أمرَ بجزّ رؤوس قطاع الطرق وحمْلِها على الرماح.

كانت مسيرتنا والرؤوس على الرماح مُنهِكَة. تنبعث روائح زنخة رغم الملح والشمع، والحناء، وحَجَر الشبّ التي حنِّطت بها الرؤوس. كنا نجرّ أنفسنا جراً والغرانيق ما فارقت أصواتها

أذني. عرجنا في طريقنا على المداشر وأطلقنا براحاً ينبه السكان بمآل كلّ قاطع طريق.

بعد عودتنا إلى القصبة شغلني ما أحمله من أتراح ثقيلة عمّا كنت أحسه من انتصار. زغاريد فرح الاستقبال كانت لي مواويل حزينة. كأنّ الدنيا لا تقنع بما تهدي لنا من شرور وأمراض فتزيدنا ترغيب الاقتتال.

نفسي تهذي: أي تسلية في القتل؟ أي خطيئة ضرورية هذه؟

تذكَّرت قول جدتي:

- متى يتخلَّص الإنسان ممّا يسكنه من شياطين تحبِّب له شريعة الدم؟

ظللتُ مرمية على الفراش ليومين لا أرغب في أن أنهض أو أتكلم. حفاوة أهل القصبة لم تُنسِني إحساسي بالتعب. أقمنا ليلة للاحتفال. شرع مقرئ يتلو القرآن ويذكر الله في ترتيل جميل كأنه صوتٌ آتٍ من السماء يرشّنا بنداه، فتبرد حرارة ألمنا.

ضياء القمر حنون متوهج، ينزل هادئاً على مياه النهر المنسابة قريباً منّا. بهجة أنواره لم تعُد تبهجني. أهو لا يهتمّ بما حلّ بنا؟ حُمْت حوله بعيني فكانت حمامتي تحلق غير مبالية بما بي.

زرتُ الجرحى. لم يتوقَّف جريح بكتفٍ مفلوحة عن الأنين. امرأة شابة كانت قد فارقت الحياة في الطريق. أصوات وأنات

الجرحى كانت رعداً مزعجاً مروعاً يثقب أذني. قدمت لي المسعفة غَيْثَة عصير توت مخلوط بالعسل. هدّأني.

* * *

ما عشته وطيف الطير أتعبا دماغي. بعد أيام من عودتنا من ملاحقة قطاع، الطرق وصل «رقاص» والدي بمرسال يطالب شباب القلعة صبايا وصبياناً بالاستعداد للتوجه إلى البحر في مرسى تَرْغَة للتداريب. ذكر في الرسالة أنّ فصل الشتاء على الأبواب وليس هناك زمنٌ خُيَرٌ منه للتدريب على الحرب في البحر. والرقاص ينتظر الجواب، قلت له:

- أخبروا والدي أنني كذلك ذاهبة.

خفَّفت الرحلة من أثقالي. جبال شاهقة راسية على الشواطئ تحرس البحر، وتعكس عليه لونها الأخضر الداكن. هيبة غامضة من البحر بلونه الأزرق الأخضر الغامق. ساعة وصولنا شرع الغسق في نثر ألوان حمراء كلَوْن الدماء تغطي السماء. في الأيام الأولى لوصولي تراءى لي أنّ قدرةً ما لعبت في طريق قدري لأصل إلى مكان عشّ الطائر المنتظر. كثيراً ما شردت مرتقية بعيني بين مرتفعات الجبال ومع امتداد البحر باحثة عنه.

التداريب اليومية القاسية، ومقاومة البحر في فصل الشتاء مسحت من ذهني مؤقتاً طيف الطير. كنا نتحدى البحر تحت عباءة برده ليلاً، وفجراً، وحتى تحت وابل من المطر.

نبحر قلب البحر بالمراكب ومن هناك نشرع بالرمي على اليابسة. ماعون المدفعية كان يأخذ منّا حصَّة كبيرة من الوقت. المهارة والدِّربة على حشو المدافع ومباغتة مراكب الأعداء أساس الانتصار في البحر، هكذا كان يحثّنا قائد التداريب.

تقدير المسافة لإصابة الهدف والمركب مسرعاً كان صعباً. حين يهيج البحر تتطلب إصابة الهدف مهارة خاصة وتدقيقاً في المسافة، يحسب حساباً لحركة مركبنا والمركب المستهدف. قضينا شهوراً من تدريب مكثَّف ليل نهار... السباحة في خضم الليل... مدّ الحبال والأشرعة... التجديف بسرعة... قيادة المراكب في قلب أمواج تنطح أمواجاً وإصلاح أعطابها والقفز منها و...

زميلاتي أسِيَة ونَزِيهَة ورَابْحَة كنّ يسبحن أفضل مني. عَائِشَة تغطس عميقاً وتعشق الماء عشقاً لا يضاهى. لا أستطيع أن أغوص مثلها. كانت تضحك وهي تقول إنّ المخاض فاجأ أمها وهي تصطاد فوق مركب صغير قلب البحر، وهناك أتاها الطلق، لهذا أنا سبّاحة ماهرة. سميناها «عائشة البحرية».

باغتتنا سفن البرتغاليين ليلاً ونحن نيامٌ، هاجموا المرسى، دمروا لنا مركبين، وقصفوا وأحرقوا دوراً وما بها من بهائم. قتل رجلان وامرأة كانت تحاول إنقاذ مواشيها. هربنا إلى الجبال. حمدنا الله حين سلَّم لنا باقي الأسطول الذي كان قد خرج في حملة جهاد.

قال لنا الرايس القاعَشْرَاسِي رئيس البحر بالمرسى:

- الحمد لله، لم تكن خسائرنا كبيرة هذه المرة، إنها المرة الخامسة التي أعيش فيها هجوم البرتغاليين على المرسى. منذ ما يقرب من ثلاثة عقود باغتونا بخمسين سفينة حربية على متنها خمسة آلاف جندي، دمروا المرسى وأحرقوا لنا كل السفن وحفرنا ثلاثمائة قبر لشهدائنا. المرة الثانية حطّموا المراكب التي كنا قد أعدنا صناعتها وغنموا عدداً منها. وليس ببعيد هاجمونا ونحن نيامٌ، أحرقوا تَرْغَة عن آخرها، وأسروا مائتي أسير من أطفال ورجال ونساء، منهم أختان لي لا أعرف شيئاً عن مصيرهما إلى حدّ الآن.

ختم قوله:

- مع هؤلاء الكلاب لا راحة لنا.

تمَّت إعادة بناء السفن التي دمِّرت، وصارت مراكبنا ترسو في خلجان ومراسي متفرقة. استعملنا مرسى وَادِي لاَوْ وتَرْغَة وتِكِيسَاسْ، وعزَّزنا حاميات الحراسة ليل نهار.

في الليل ومراراً قبل أن يخطفني عالم النوم، كنت أفكِّر إنْ كان باستطاعتنا أن نصنع مرايا حارقة لحرق سفن العدو، حكاية من العهد القديم كنت قد سمعتها من معلِّمتي السيدة رَاغُونَة.

عدنا أكثر حماسة للتدريبات. صرنا إلى جانب كلّ القادرين من سكان المداشر المجاورة للبحر، نساء ورجالاً وصبياناً

نتدرّب ليل نهار، على الغوص بعيداً تحت الماء، ومباغتة مراكب الأعداء وإلحاق أكبر ضررٍ بها.

تعلَّمتُ حبس الأنفاس تحت الماء، وكنت أبتهج كلما حققت غطساً عميقاً، وتبتهج دمائي ببرودة الماء، وتبتهج أكثر حين يقترب مني مُفَضَّلْ، ويتغيّر طعم الغطس، وأحبس أنفاسي أكثر حين نتعمّد الغوص لنتقابل قلب الماء. نتقارب، نحتك، فتتوثب فيَّ رغبة القبض عليه. حُبّ صِبا حار متوهج لم تطفئه برودة المياه.

كنت أسبح مسافة تحت الماء لأصل إليه. أغطس عميقاً فيتلقفني بيديه... ثم نصعد متباعدين إلى سطح الحياة بعيداً عن بعضنا وعن أعين مَن يرافقنا. صار لي الغطس مبتغى لذيذاً. وحده الماء كان يشهد ألاعيبنا.... جميل هو الحب الذي يدفعك إلى الغوص هروباً من منغصات الأيام، وبحثاً عن لذته، وعن ما يدفئ برودة الروح. كنت أستشعر قربه برعشة غريبة جميلة ظلَّت تدغدغني طويلاً ولم تَغِب كلياً عن ذهني إلا يوم زواجي.

* * *

يا نواحة الهديل ليست كل أيامي غلا وأسى، ها أنا أرتقي عنان حلمي، فهلُّمي شاركيني الحلم والرحيل.

الطريق مرهقة. قطعت جبالاً وعرة لكنني اليوم أتذوق تعباً بنكهة مغايرة. أشعر أنني حائرة وفرحة ومتبرمة. بدار الإمارة

بشفشاون دقّت الطبول ونُفخ في المزامير منذ أيام إعلاناً لزواجي. إنني أرحل زوجة لرجل قدره يخاوي قدري.

أسابيع من قبل ولآلِئ القرطبية لم تتوقف من تقديم الوصايا عن كيفية تصرفي في مقامي الجديد. طريقة الأكل، والنوم، واللباس وإرضاء زوجي... وكأنها تخاف علي أن أفشل في مهمتي.. تحكي لي وتهيئني لما لا عهدَ لي به. تُسمعني أسماء لأشياء أتعفَّف من ذكرها، تصفُها دون خجل أو مواربة. تسترسل فتسمّي كل الأشياء بمسمياتها، ممّا يثير لديّ فضولاً وخوفاً وإحساساً ساخناً بلهب أشيائي... أحلق خجلة خلف الحمامة.

كانت تحكي لي عن المرأة الحاذقة المُتَمَتِّعَة والمُمَتِّعَة.. قالت لي: عاملي زوجك كمعشوق وليس كزوج، قبل أن تنطلق في تفصيل الفرق بين الزوج والعاشق والزوج المعشوق...

قلت لها:

- كثير عليّ أن أزيد أحمالي ثقلاً آخر.

- إنه حمل لذيذ.

عمَّتي أوصتني وهي تودعني:

- إن الرجل المتوجِّهة إليه قائد شجاع، وأمير من سلالة الأمراء المجاهدين المدافعين عن الأرض والعرض. لقد شارك برجاله في معظم الخرجات الجهادية لوالدك، وقد أبلى البلاء الحسن. عليكِ أن تقدريه وتكوني مخلصة ملبية لرغباته متى أشار عليك.

شدَّتني من يدي وهي تضيف:

- نحن من سلالة حين تتزوج نساؤها تعتبر الرجل عشيقاً وزوجاً وأخاً وأباً، إنْ انقضى الإحساس الأول تعوِّضه بالإحساس الثاني، وإن اندثر الإحساس الثاني تعامله أخاً وإلا تحتسبه أباً، وحتى يدوم هناء العشرة الزوجية تتعامل مع الرجل كأنه كل هذه المسميات مرة واحدة.

أمي عانقتني وهي تقول:

- عزّ المرأة زوجها، هو مَن يرفعها أو يذلّها، يغطيها أو يعريها، يقصر من عمرها أو يحييها، ولا أظن أن زوجك إلّا ممّن يعزون المرأة.

أضافت أنها مسرورة كوني سأتزوج رجلاً مجاهداً شهماً، وأن الرجل الأندلسي ذو طبع رحيم، وفنان حنون يتفنّن في التعامل مع المرأة، فيجعل أوراق أزهارها تتفتق عن عبيرها المكنون كزهرة عنبر الليل.

واصلت وكأنها تكلِّم نفسها:

- ونِعْمَ الرجل العارف الذي يعلم متى يكون خشناً مع المرأة، ومتى يصبح أرقّ من عود النّدّ بين يديها.

كلامها يُنسيني تذمري وتخوّفي ممّا لا أعرفه، وهي تنظر إلى عينيّ استأنفت نصحي:

- أَغْنِيهِ يُغْنِيك. هو هذا الغنى دون جاه. أغنيه ممّا

تملكين. اجعليه يرشف رحيقك قطرة قطرة، فنحن نساء نتفنَّن في معاملة الرجل وإرضائه، ولو في خضمّ أتون الحروب.

لُوِيزَا ابنة خالي قالت لي يوم أعلنت أمي خبر خطوبتي من الحاكم مُحَمَّد المَنْظَرِي:

- ليست بامرأة نبيهة مَن لا تكون أفعى مع زوجها... أفعى تجعله يطأ عتبة الجنة.

أيام كانت قد انقضت لإعدادي عروساً قبل رحيلي. لآلِئ لم تنفك من إعداد مواد الزينة والتجميل، وتحضيري للخروج كأميرة عروس، كما كانت تقول.

غلبت الدموع أمي وهي تودعني ساعة خروجي:

- ابنتي الوحيدة ما زفت زفة عروس خارجة من دار أبيها. عند خروجها ما دقت طبول وما زمرت نايات وما امتطت هودجاً.

في مدينتنا تزفّ العروس إلى زوجها في هودج. يحفّ به المرافقون والمرافقات في رقص وطرب وغناء. أنا، عند خروجي نزعت القفطان والكَمْخَة المذهبة الغرناطية وتلحَّفت بلباس فارس. أتوجَّه إلى عريسي وأنا أمتطي حصاني الأسود ترافقني مجموعة من الفرسان، كأنني متوجهة للجهاد. عند خروجي رميت بعيني إلى الراية الحمراء على قمة القلعة، كانت كعادتها ترفرف، وطيف حمامة حذرة يطلّ عليّ. راودتني فكرة تُضحكني لتُلهيني عمّا بي، إنني أرحل بلباس رجل إلى رجل.

بباب المدينة وقف ابن مَيْمُونْ يعزف على كمانه، وبجانبه الطبيب موسَى وقد أرخى يديه وشرَعَ يرقص وهو سكران في دوران دون إيقاع.

تمّ اختيار ليلة غير مقمرة لرحيلي. فوالدي خافَ أن يتعرَّض موكبي لهجوم من الأعداء، ما أكثرهم، فرنجة وقطّاع طرق ومتصارعين على الحكم من مناصري السعديين ومناصري الوطاسيين. كمن يتسلل خرجنا قلب الليل. الطريق تحفّها عتمة من شدّة حلكتها تقطع بالمقص، ورغم الحلكة كنت ألمح طيف الحمامة وهي تحلق عالياً بعيداً بجناحين أبيضين يلمعان، ويخفقان.

على الطريق بين جبال مدينتي تطوان وشفشاون، كل النجوم وأطياف الأشجار ما فتئت تحثني أن أكون عروساً تحفة.

أتلهى بترديد دندنة:

- الحْبَاقْ والزْهَرْ والسّوسَانْ عِنْدَ حْبِيبِي فِي كُلْ مْكَانْ.

غاب عني الطيف. أشياء بسيطة في حياتنا اليومية تلهينا أحياناً عن أمور كبيرة نكون نتخبَّط فيها.

على مشارف أبواب مدينة تطوان استقبلتنا مجموعة من الفرسان. المشاعر ترتبك والمشاعل تومِض وتتلاشى أضواؤها. تقاطع النور والظلام يشلّ عيني. وجوه مَن استقبلونا غير واضحة. في لهفة أرمي نظراتي بين الوجوه ونور المشاعل. أبحث عن مَن هو زوجي. لم أكن قد رأيته من قبل، لكنني

سمعتُ عن حسنه ووسامته. اقترب فارس منا... كان يبحث عن زوجته... راقني محيّا وجهه. فنزعت عن ملامحي ما كان يدثّرها من وعثاء الارتباك والخوف. نزل من فوق حصانه، تقدَّم نحوي ابتسم، مدّ يده، قبض على يدي وقبَّلها.

شاب متهلل الوجه في مقتبل العمر. تشعّ من وجهه ملامح الرجولة. جمال رجولي مجلَّل بنظرات قوية تلمع في رحاب عينين شهيتين تخترق الظلام، وشطحات شعلة المشاعل، وتجعلني أبتسم.

تقدَّمت نحوي سيدة سمراء مسنَّة، زغردت، ثم طلبت مني أن أركب الهودج. رفضتُ متذرعة بأنني مغبرة. أصرَّت.

فتحت باب المدينة. بأنوار وزغاريد استُقبِلْت. منزل إقامتي فخم بأقواس وبفناء واسع تزيِّنه زخارف من زليج أندلسي تماثل زخرفات بيوت شفشاون. متعبة توجَّهت إلى فراش الغرفة التي أعِدَّت لي أستجدي النوم، ومطارق كثيرة تدقّ رأسي تارة بلطف وتارة بعنف.

* * *

طلع الصباح. من نوافذ دار الإمارة بقلعة جبل درسة بتطوان، يمتدّ البحر أمام عيني في زرقة تتلاقح بين الماء والسماء. رحلت من قلعة جهاد إلى قلعة أخرى، ومن نذير راية إلى نذير راية أخرى. على رأس القصبة راية حمراء كبيرة شبيهة بتلك التي ترفرف فوق قصبة مدينة شفشاون. الرياح تتلاعب بها

صوب كل الجهات. رفرفتها تتضوع منها رائحة الموت، وتحرمني ممّا هيأت له نفسي من لذيذ الأحلام.

تستبيحني نصائح والدي:

- علينا أن نرفع أعيننا إلى الراية من حين إلى آخر، إنها تذكِّرنا بوجوب الاحتراس من العدو. عدونا كالريح يأتينا من كلّ الجهات. الريح تباغتنا ونحن لا ندري متى، ومن أين. كل رفرفة لها تذكي خوفنا وحذرنا لتجعلنا دائماً متيقظين وملحّفين بالحيطة.

خاطري مكسور، حتى وأنا عروسة مُلزَمة بأن أعيش قلق الاحتراس. انتفضتُ، تسلقت عيني السماء، كان طيف الحمامة يحطّ على رأس عمود الراية، وددتُ لو يكون أبي قربي لأقول له:

- يا والدي هناك الطير المخلِّص يحوم حول الراية.

ما كانت رؤيتي للحمامة إلا رؤيا.

نحن محاطون براً وبحراً بأعداء يرغبون في قتلنا. قدرنا الاستنفار الدائم... لا خلاص لنا ولا خلاص لزوجي المَنْظَرِي الذي سأحتمي به الآن... ذلك ما يجمعنا مع آل المنظري منذ وصولهم إلى تطوان مطرودين من طرف البابوية من الأندلس. حلوا مع نسائهم وأطفالهم هاربين في مراكب صغيرة. التمسوا من الحاكم الإقامة في منطقة نفوذه. رُحِّبَ بهم وتمّ توجيههم إلى بقايا قلعة تطوان، حصنٌ حربي بناه الحكام المرينيون منذ قرون

ودمّره هجوم الفرنجة منذ عقود. خاطبهم والدي وهو يسلمهم القلعة:

- هذه بقايا قلعة دمِّرت على يد أعدائنا. صونوها واجعلوها ملاذاً لكم.. عمِّروها تعمرون، وحافظوا عليها تحافِظون على حياتكم، وإلا ستعود لتصبح مخربة مرة أخرى، وطبعاً نحن وأنتم مخربون معها... تعميرها وبقاؤها من بقائكم.

فكرت:

- هربت من الموت أحتمي بمَن يهرب من الموت، لنضمّ خوفنا وهروبنا فقد نشدّ من عضدنا.

* * *

في الغد رميت بكلّ ما ينغصني وتهيأت للبروز أمام نساء المدينة المحتفلات بقدومي عروساً. بقفطان من حرير مذهب خاطته لَيْلَى الإشبيلية كنت محط أنظار نساء عائلة المنظري ونساء المدينة المحتفيات بي.

في الليل، محمَّلة بكل النصائح التي زوِّدت بها، تهيأتُ للاستلقاء على الفراش واستقبال «زماني».

تمددتُ، بجسد يرغب في احتضان حياة جديدة ويحلم بالتحليق، على ناموسية بأعمدة وقباب من النحاس، وتعجيرة بيضاء مطرزة بخيوط صفراء وَورود من لون أخضر فاتح وأرجواني. شرعت أسترجع ما عليّ فعله... وجزعتُ حين

تذكرت ما عليّ إظهاره من دلال وغنج وأنا متدثِّرة بخجل ماكر، وبكبرياء مصطنعة.

حضَرَت للّا فمة، امرأة جميلة في مقتبل العمر، ودودة ومرحة. ساعدتني في خلع القفطان وخيوط الجواهر التي زينتني بها الماشطة. شرعت تطلق ضفائري، تفكّ جناحي وتُعِدّنِي لكي أحلق وهي تكلِّمني عن ما يسكننا ولا نعرفه. قالت لي:

- التحليق والانشراح صناعة يا سيدتي، مَن غابت عنه غاب عنه وعن أهله الغبطة والسرور.

وهي تزينني لساعة الدخلة، كانت تحكي لي عن عدد الرجال الذين تزوجت بهم، موضحة أنها كانت تشترط العصمة على كلّ رجل لتختار التطليق متى شاءت. ركب ملامح وجهها غمّ وهي تُخبرني أنّ معظم أزواجها استشهدوا في المعارك. تعود لتضحك وهي تقول لي إنها امرأة الرجال، وإنها ما خُلقت لذكر واحد.

صنعت على شفتيها ابتسامة لطيفة وهي تكلمني:

- إنني منذورة للخوض والغوص فيما يسكن غياهب الرجل، وتحريكه من أجل بهجته وبهجتي.

قبل أن تضيف:

- إن ما يظهر من الرجل معروف، لكن المدفون منه هو الأغرب والأجمل. فبواطنه قد لا يعرفها حتى هو، والفاطنة من

النساء هي التي تسبرها، حينها تسلب لبّه وتكون الغصن الوحيد الذي يحطّ عليه عشقه.

تابعت:

- رفرفي حول الرجل، اجعليه يسافر في سراديب جسدك وجسده، بهذا سينقاد مباشرة إلى روحك يحتمي بفيئها، والرجل لا يخذل ملاذه، والطائر لا يهجر عشه الدافئ.

صمتت قبل أن تواصل وهي ترسم بسمة ضاحكة:

- تذكري أن الرجل عقله كالماء الراكد، وهو دائماً يرغب في امرأة تنزل لتغوص في قيعانه، تحرّكها فيُصبح بدوره هو السابر لقيعانها.

كنت ما زلت مبهورة من حديثها حين استطردت:

- وإذا ما وطأت لبّه وسكنت قلبه، يعتني بها كما يعتني بوردة يَخَاف عليها من الذبول، وبيمامة يخاف أن تهجره.

* * *

ظلّ صدى كلام للّا فَمَة شلالاً في رأسي. قرب المنظري ارتميتُ على الفراش تعنّفني أنوثتي وتستعجلني، لكنني بقيتُ صموتة خجولة في كيدٍ أنتظر هجومه. لم يكن طائر عقاب. ظلّ مهذباً خجولاً ممّا أضفى على وسامته جمالاً نادراً ما يغلف سحنة الرجال...

انتظرت... فتأخّر. انتظرت... فما تقدَّم.

يوماً في قصبة شفشاون كان قد أثير لغط بين نساء القصبة، حين بوغتت فَاطِمَة زوجة قائد مركب تعانق في عشق جامح مَرْيَمْ زوجة حارس البرج. كان الحدث ذريعة لنساء القلعة لكي يثرن ويعرين أسرار فراشهن على الملأ، وعجز بعض أزواجهن عن دفعهن للتحليق.

بعضهن متألمات حكَت عن أزواج عاجزين. هي أهوال الحروب تورث دمارها غير الظاهر... عدد من المجاهدين تداولتهم ألسنة زوجاتهم وهن يلعنن الحرب التي خربت هِمَّتَهمْ.

وأنت أيها المنظري، أضَعُفَتْ عزيمتك من هول ما قاسيت، أم أنك تخجل من القبض على ألجمة امرأة وشدِّها، وتمسيد ريشها ومن ثم ترخي لها العنان في حنان؟ إن كان هذا التقوُّض قد ألمّ بك وأنت بهذا البهاء، أتستحق أن تُعاش الحياة وبها كل هذا الخراب؟ وكيف تترك لي ندوب الحروب رَغَبَاتِي وتهشِّمها أنت لديك؟

قبل أن نخرج لملاحقة قطاع الطرق، كنا قد احتفلنا بعرس سَعْدْ وهِبَة. خرج معنا الزوج في الحملة، جرح بين فخذيه. صرخت هِبَة في وجهي تعتب عليّ بعد شهر من عودتنا:

- أذْهَبْتُمْ نار زوجي التي كنت أحرق بها شهوتي المارِدة فأرتاح، ما أعَدْتُمْ إليّ سوى قدر مملوء بالرماد وعصفور مكسور الأجنحة.

ليته يكون خجلك يا منظري مَن منعك الليلة من أن تتقدم إلي، ليته يكون خجلاً ماكراً يستدرجني!

* * *

أصيل فاتن ليوم جديد. نوار شجر اللوز يستحثّ خصوبة فصل الربيع. أسرع يا رجل، دعْ عطر عشبك ينهمر عليّ مثل قطر زهر الربيع.

تمدَّدت على الناموسية جسداً يرغب في أن يولج لتلِجَه نفحات الحياة ويَلِجُها، جسداً يرغب في استقبال حياة أخرى، حياة حكي لي عنها الكثير وسمعت عنها ما يلهب النفس ويذكي صبوة الروح.

كنت متلهفة للقاء الرجل، لافتراسه بتلك الرغبة التي تفرضها عليّ حرارة صباي. لكنني استحييت أن أبدأ. رداء من حياء المرأة يخفي لهيب تلهفي.

أدعو ما كان يلاحقني في خيالي من صبابتي. هديلي لا يتوقف. متأهبة تدفعني الأحاسيس التي خلقها الله فينا. أرغب أن «يقربني» زوجي الليلة.

أمامي كان الشاب المنظري يخطو كذكر حمام في أبهى قفاطينه، طاووس بهي... دثِّرني بريشك أيها الطاووس.

انطفأت القناديل والشموع. الظلام حجاب بيننا يخفي الرجل عني ويخفي توتري، لكن حتماً سيرغب الجسدان في الاقتراب من بعضهما، وسيشتعلان في بعضهما أنواراً، ليُعلنا أنه

ما زال في دنيانا الرحب ظلامها والكبير حزنها، ما يجعل الروح ترقص حبوراً.

تمنَّيت لو يقربني سريعاً لأختبر ما صدق الوساوس التي يوسوس لي بها الشيطان عن عنّة رجال الحرب، عن عنته. تمنيت لو أمدّ يدي وأعرّيه. كم هو ممتع لو كلّ امرأة كواها شوق مبرح لرجل استهوته نفسها تمدّ يدها إليه، وتقوم ببساطة وارتياح فيما ترغب فيه منه.

أودّ لو أقول له خُذني بين يديك واعجنّي كما تشاء، سأطاوعك. ولكنك ستكون زوجاً رائعاً لو عجنتني كما أودّ أنا، ساعتها سأختمر بين يديك لأكون لك اللذة الطازجة.

أتمنى أن يطفئ الشمعدانات ويبحث عني، عن كنوزي، بين وتحت طيات قفاطيني، وأن ينفخ على ريشي ريشة ريشة.

أغويك، أنزلق بين تلافيف الظلام وأختبئ عنك. سيدلّك حسّ خلاخلي ورنين أساوري عليّ، وإلا سيدلّك ما يتضوّع مني من أريج، عبق مختلط ممّا تعطرتُ به من عطور ورائحتي، ورائحتي أشهى من كل العطور... تقدَّم أكيد ستجدني.

غنجي الأفعواني وفحيحي يطلبانك، كنْ نسراً واطوِ فحيح الأفعى تحت شفتيك، أنا الحمامة الحرة فافترس يا طائر الباز.

تذكرت كلام للّا فَمَة وهي تركّب لي الخلاخل:

- الشهم من الرجال هو من يبحث عن المرأة بواسطة عطرها وخلاخلها. دعي زوجك في ليلة الدخلة يتتبع رنين

الخلاخل والأساور، وهمس الأقراط ليقبض عليها بيده وفمه ولسانه، وليرتقي بعد ذلك ليقبض على كنوزك، يمرح بين همسها الخفي الذي يناديه فتصبح كنوزه.

وتذكرتُ كيف رسمت على وجهها ابتسامة وهي تتابع:

- الرجل اللبيب هو مَن يجعل امرأته جارية في الفراش وحرّة خارجه.

أتملك يا زوجي كلّ هذه الرجولة؟

اسبَحْ قلب حرارة صباي. جسدي لجج من أسفل إلى فوق ومن فوق الى أسفل، كُنْ بحاراً ماهراً يا مَنْظُرِي واركبها، وتذوَّق طعم السباحة في خضم أمواجي. اعتق عفريت جسدي لينعتق مني ويعتقني، ابن الكلب، لقد أرَّقني من حدّة عويله، وأنا ما لي من طلاسم تدعه هادئاً أو تغريه بالتريُّث... وتغريني بالعفاف.

دعني أريك فنوني وأريني جنونك. أذِقْني من فنونك وَدَعْني أذيقك جنوني. جنوني جنون الصبا، وحرارته تحلّ عليَّ كالمطر، فتبلَّل معي... لا تقف طفلاً مذعوراً من صواعق جسدي، ارتمِ لتلجَ صندوق تُحَفِه وتقطف دُرَره... تقدَّم، ادعك حبات رمانتي لتصل إلى لبّ حبّها واقضِمْ بشفتيك.

اقطفني فما أنا بثمرة من شجرة شرّ، ما أنا بتفاحة شجرة الشيطان أغويك بما يطوح بكَ من جنَّتك. اقطف تفاحاتي لتتوغَّل في شِرْكٍ يُحييك من ذبول الروح. اقطفني يا رجل لتدخل

جنتي، فأنا الثمرة التي إنْ تذوّقتها لا هروب لك من لذات طعمها سوى امتصاص لذتها من جديد.

لن تشفيك أي تعويذة من سمي سوى شرب سمِّي. فاشرب وبلِّلني وأمطر سخونتي لتخبو ثم تولَد بك ومنك من جديد. اجعلني أتيقَّن أنني ما خُلِقْت للحروب والهلع فقط، وأن أسرار العشق والوصال قد أودعَت لديّ كُنه أسرارها.

* * *

نوافذ الغرفة تستقبل شعاع القمر الممتد إلى البحر. دخلت الخادمة. خرج زوجي. غيَّرت ملاءات الفراش الملوّنة والمطرزة بأخرى ناصعة البياض. قالت لي في بعض من الخجل:

- سيدتي ها هي الشراشف البيضاء . . .

ألهذا تأخر المَنْظري في الدخول بي؟

تمنيتُ أن يبحث عني خلف الرنين الهامس لجواهري، لكنه رجل، والرجل يحلو له أن يبحث عن المرأة خلف دمها.

لكن أحقاً سيرغب مُحَمَّد أن أطلِعَه على دمي، هو الخبير بدماء الجرحى والقتلى في ساحات المعارك؟

ونحن صبايا كان يُقال لنا إنّ مَن حلمت نفسها بأنها حمامة تُذبح ستكون بكارتها ستفضّ قريباً، أترغب في أن تذبحني يا رجل؟

عادتي الشهرية تقترب، أعراضها تربكني، ماذا لو اختلطَت

دمائي ولم تُعرف أيّ منها هو الذي أنزلته أنت وأي منها يهمك.

شجن وتعب يغلان خاطري. أمي كذلك أوصتني على دمائي بمثل الحماسة التي كانت توصيني بها وأنا متوجّهة إلى الحرب، صارحتني بما أحمل من حِمْل علي أن أقدِّمه إلى زوجي حافظاً لدمائه ومعكراً بها.

منذ طفولتي وأنا أتعلم أن لا أنفر من لون الدم. والدي كان يصرُّ على أن نشارك في حمل الجرحى وجثث القتلى، وأن نجمع بأيدينا نحن الأطفال والنساء ما تشتَّت من أضلع وأشلاء رجالنا عند عودة الموكب إلى مدينة شفشاون، أو عند وجودنا في المعارك. أتراه كان يضخّنا بجرعات من عدم الرهبة لنتقبَّل حدّة مهالك مسالكنا وخطوب أيامنا، ولنتيقَّن أننا لا نحيا إلا قلب حياة تخطّ قدرنا باللون الأحمر المنفر؟

الدماء التي هوَسوني بالحفاظ عليها لا أعلم أين تختبئ، رغم أني حاولتُ أن أبحث عنها يوماً بيدي بين ثناياي الباطنية ولم أعثر عليها. في دورتي الشهرية ينزل مني دم أهو دمي المنتظر نفسه؟

من قبل كنت أنفر من دمائي، مجرّد محاولة النظر إليها كانت تنفرني. باغتتني مرة وأنا أسبح في الماء البارد، ومرة حين كنت أمتطي الحصان. خوفاً واشمئزازاً لم أسأل إن كانت تخص العادة الشهرية، رغم أنّ دورتها لم تكُن آنت، أم أنّ دماً آخر يسكنني وينزفُ مني. كنتُ متعوِّدة على امتطاء الخيل، حذَّرتني عمتي من الاحتكاك بظهورها، قالت لي إنّ ذلك قد يُفقدك

عذريتك. خفتُ في البداية لكني سرعان ما تناسيت حين عرفت أن الحياة بها دماء أكثر قداسة، تهرق أنهاراً دون ذنب اقترفه أصحابها.

جواني هرج يسيطر عليّ. لظى الدم يلاحقني أين ما حللت. المنظري رجل خبر الدماء، فمن المؤسف أن ينتظر قطرة مني لن تكون سوى من سائل أحمر باهت متّسخ ليقتنع بعفافي. رجل تشبّعت عيناه من رؤية هذه السوائل حارة تفور ليفارق أصحابها الحياة، يرغب في أن يبني حياتنا على قطرات منها.

تعرّقت، تمنيتُ لو يعفيني زوجي من أن أقدّم له سائلي. كنت أودّ أن أنام وأقول له خُذْ مني دمي كما تشاء.

رسا على وجهي لون شاحب، وما كنت استعددتُ له سرعان ما تلاشى حين راودتني خواطري. تراءت لي طاعة الزوج طاعة حمراء، وانتفت عني تلك الأحاسيس الجميلة اللاهبة، التي كنتُ أوضّب نفسي للحصول عليها.

قلقٌ غامض في عيني المنظري يمحو ما يستكين فيهما من حنان، ويطفئ ومض الابتسامة التي كان قد رسمها على شفتيه.

أستحاسبني يا محَمد على ما هو ملك لي؟ أنا ما عاشرت رجلاً حتى مكّنته منه. مُفَضّل صديق الصبا وحده سرق مني وسرقتُ منه قبلات حارة شقيّة، ومداعبات خجولة حين لم يعُد جسدانا خجولين وشرعا يطالبان بأشياء يقبرها فينا الحياء.

في الغابة تقاربنا بعدما سبق لنا أن تذوقنا رعشة الاقتراب والملامسة في البحر ونحن نتعلم الغوص. كان شيء خفي يدعو نيراني اليافعة للاشتعال، لكنني كنت أحمل كل الوصايا المقدسة، وأحفظها عن ظهر قلب حتى لا أمكّن الشاب اليافع من مقدّساتي، وأن لا أمكّن منها سوى زوجي.

سيدي، إنْ كنت ترغب في جسد امرأة طاهر على استعداد لاحتضانك هو وقلبي فمرحباً. نعم إنْ كنت ترغب فيما سأهديه لك في أبهى حلله فمرحباً، وتقدَّم لتتفجر مكامن أغواري على يديك ولتعتق عفاريتي من قماقمها، أما إن كنت مهووساً بالدم، فيكفيك ما عايشتَ في المعارك من دماء توخز القلب حتى ولو كانت دماء الأعداء...

كانت وساوسي أضغاث كوابيس.

حبيبي، شبيهي في التغرُّب وجنون الجسد، اشْدُدْني بأوتادك إلى جمال الحياة، ولا تدَعْ الزمن وحده الكفيل بي يشتِّت عقد زهوري، ويبدِّد ريشي. كن بي كفيلاً في عمر يمرّ بنا كطلقة بارود لا تخرج من البندقية، إلّا وهي عازمة على الانفجار والتلاشي.

بالهدوء حبيبي، بالهدوء، أنا حمامة خنوعة فكُن لي صقراً بمخالب من ديباج. وفِّر جهدك وخُذني بالكياسة فقَد مللتُ قسوة أيامي واطلُب ما استطعت.

أيها الزوج الرائع، إنني أتلظى بين يديك وبين لهيب كلماتك، شكراً لك لقد جعلت روحي تسيح من نشوتك.

صمتاً... صمتاً... ضعْ فمك على فمي وهبني عبره أكبر حبٍّ وأمان... وهبني من لدنك تحقيق أحلامي، وحلم المرأة الكبير الذي لم يمُت فيَّ رغم كل مسالك الحروب... أن أكون أماً، وأن يكون لي منك ولد.

* * *

يخيفني الحمل. كانت شهوره الأولى غثياناً وقيئاً واشمئزازاً من رائحة زوجي واندباغاً لجلد وجهي، وما تبقى قضيتها قلقة في انتظار المخاض. قلقٌ لم يخفِّف من وطأته علي، سوى لذة انتظار المولود وأنني سأصبح أما.

نفسي لا تُفَكُّ من تخبُّطها. تخيفني فكرة الولادة. سألد مَن ستكون محجّته كمحجتي، نهارها كليلها... أضافت لي نفسي التتمة، محجة لا يقطعها إلا هالك.

آلام الحمل، المخاض وأوجاعه، دماء ثم مرض النفاس... دماء تعطينا الحياة والموت.

وَقْع الحمل لا يكون دائماً وقْعاً طيباً على مَن تنتظر ساعة الوضع. كثيراً ما كان بطعم العلقم في مدينتي شفشاون وتطوان. عدد من النساء يقتلهن الاستعداد للولادة وعسر المخاض. مراراً ودَّعنا امرأة شهيدة لم تمُت في حرب أو تقتيل.

بشفشاون كان الفقيه الهَبطي ينصح النساء:

- أيتها المؤمنات لا تخَفْن من الحمل ومن ساعة الوضع، مَن ماتت عن مخاض فهي شهيدة لها ثواب المجاهدات الصالحات في جنات النعيم.

كان يكثر من أدعيته ويهيب بكلّ رجال القلعة للخروج إلى جنازة امرأة إذا ما استشهدت، كما كان يقول، عن عسر في النفاس، حتى إنه كان يفتي بخروج كل أهل المدينة، ولا يرى أيّ حرج في مواكبة النساء للجنازة، والخروج مع الرجال إلى المقبرة للترحُّم والدعاء للشهيدة.

ظلّ صامتاً مكلوماً يوم دفن سَارَة اليهودية أمام قبرها لحظة الدفن. صباح يوم الجنازة أصرَّ الفقيه أنْ يحثّ كلّ سكان المدينة على الحضور لدفنها. شمَّر عن يديه وورعه، رفع عقيرته بالدعاء وتلاوة القرآن. كان يقول إنها ماتت شهيدة حين رمَت نفسها من على قمة جبل رَاسْ المَاء إلى قعره، وتمزَّقت المياه الباردة للنبع بدمائها ودماء مَن كانت تحمله في بطنها.

كان جيراننا اليهود يودِّعون بحرقة فقيدتهم وهم يدفنونها، بينما وقفنا نحن قرب الفقيه على مسافة غير بعيدة من قبرها وعلى رؤوسنا سحاب من أجنحة الغرانيق، نستمع في أسى لما يردِّده الحاخام ونحتمي من بشاعة ما يعترينا من لوعة بترتيل آيات من القرآن وبعض الأدعية.

ابن مَيْمُون يصرخ:

- ما كان لها أن تقتل نفسها والجنين البريء...

أشهر كانت قد مرَّت على تهجير عائلة سارة من عدوة الأندلس، صادر عساكر الحكام الجدد كل أملاك العائلة، اغتصبوا الفتاة وشرِّدت مع مَن تبقى من العائلة إلى شفشاون.

المرأة الشابة كانت تؤكد أنّ ما تحمله من عار في بطنها عليه أن يموت. اهتدت إلى رَحْمَة العِيسَاوِيّة بمدينتنا. لم يفلح ما قدَّمته لها من أعشاب في إسقاط الحمل. ذبلت البنت، كست بقع سوداء قسمات وجهها الجميل، وزاد انتفاخ بطنها ليذكِّرها بقسوة العار. خوفها من أن تلد مَن يحمل روح مغتصبيها جعل قلبها ينتفخ كراهية وحقداً عليهم وعلى حملها وعلى نفسها، ولا موت لِما تحمل دون موتها... رمت بنفسها من أعلى الجبل، لها رحمتك يا رب...

في تطوان، عايشت وأنا في الأيام الأولى من حملي حدثاً روّعني. خوف أهل القصبة من أن تقدم زَهْرَة الأَرَجُونِيَة على إيذاء نفسها، جعل نساء وصبايا القصبة والطبيبة بَلْقِيسْ يداومن على حراستها، قبل أن تقتضي حالتها ربطها بالحبال، وتنفيذ أمر الطبيبة بالعزف على آلة العود يومياً على مسامعها، لعلَّه يهدئ من روعها ويعيد لها بعض الاطمئنان.

لم يكن أثر جنون واضح على زَهْرَة لكنها كانت تنفث باروداً من الحقد وتقول:

- لن أنتظر حتى يتناثر دمي، وتفرج بطني عن ولدٍ من صلب مَن نثر دماء أبي وإخوتي قبل أن يغتصبني. سأحرق «تحتي» هذا الحامل لابن زنا من همجي زانٍ. ماذا سأقول

للوحش الذي سيخرج من بطني؟ وهل سأملك القدرة على أن أطعمه من أحشاء تحناني وحنو أمومتي؟ أحتفظ بابن غول ولا أحتفظ في بطني بابن إنسان وحش. لن أورِثَ دمه الهمجي لأهلي... دم الشرّ والقسوة.

كانت الطبيبة بلقيس تزورها يومياً لتذكّرها:

- لا تقتلي نفسك، لا تؤذي حملكِ فهو لن يرث سوى دمك... طيبوبتك ستكون غالبة على آثام المجرمين... نفس الإنسان هي على ما جُبِلَتْ وتربّت، وليس على ما ورثته من شرور.

- دماء الوحوش تختلط في دمي.

- الدم لا يورّث... احتفظي بجنينك...

كانَت المرأة مقيدة اليدين حتى لا تقتل نفسها. وضعت المولود وفي غفلة من الجميع خنقت الرضيع، خرجت وشنقت نفسها في جذع شجرة.

وَضَعْتُ، ولم تُنسِني ابنتي المولودة الوساوس التي لازمتني. حلّت الغرانيق بلونها الأسود اللزج لتنغّص أيامي وتحببني في التماس الموت، لكن مساندة زوجي ولطفه الذي ماثل لطف الطلّ على الوردة خفّف من أوهامي، حتى إنه ما خرج للجهاد مع رجاله أو مع أبي إلا بعد أن تحسّنت حالتي. حبّي له تضاعف وحبي للدنيا تضاعف وابنتي تحبو وتزحف

وتنمو أمام عيني. يغيب زوجي لكي يبعد الغزاة عن قتلنا، أتحمَّل تسيير شؤون المدينة وأمور أهلها متطيرة، وقلبي تتقاذفه أجنحة، من أشواك خوفاً عليه ومن بُعده عني.

* * *

قلبي، كقلب كل امرأة تحب زوجاً يحترف الحرب، يظلّ دائماً ينبئني بانتظار خبر مريع. كما قضيتُ طفولتي هلعة في انتظار عودة أبي وإخوتي وأهلي من الحرب، أقضي الآن أيام شبابي قلقة على زوجي... وماذا ينتظر من مسار من خراب سوى أن تتحقق النبوءات السيئة.... عاد زوجي جريحاً من معركة بحريّة قرب مصبّ وادي اللُّوكُس في مواجهة الأسطول البرتغالي، بعدما دمَّر مع رجاله ستة سفن للبرتغاليين، وفقدنا عشرين بحاراً.

لم تهدأ وطأة الألم على زوجي منذ أنْ عاد. شظية بارود أصابته في صدره. آلام بدت خفيفة ثم اشتدّت عليه ولم تعُد تبرحه، صعوبة التنفس تعذّبه، قضى شهوراً وهو يشكو ويتضرَّع إلى الله من ألم الاختناق. حزنٌ أليم يقصف قلبي كالرعد، وأنا عاجزة أن أهدئ من ألمه. عجز مروع.

وكأنّ جرحاً نافذاً في القلب لا يكفي لكي تنخره دود الحسرة، كان علي أن أدع زوجي يتألم ويصلي وأرحل. خبر جرحه وصل إلى الفرنجة وهاهم يتهيئون لمهاجمتنا. جرح الحاكم أو موته فرصة للهجوم. وصل رقاص لنا يخبرنا أن البرتغاليِّين على علم بالمرض الشديد للمنظري وأنهم يجهِّزون

سفنهم الكبيرة الحاملة للمدافع المدمِّرة، وأنهم عازمون على الهجوم على مدينة تطوان.

قال لي قادة العساكر وأعيان المدينة:

- ليس هناك أفضل منك لتعويض زوجك في انتظار شفائه. تطوان سبق ودمِّرت على يد البرتغاليين ولن نسمح أن يتمّ هذا مرة أخرى.

زوجي من بحر آلامه حثَّني على الاستعداد لركوب البحر، واعتراض طريق السفن المهاجمة، ومحاولة صدِّها قبل مباغتتنا. قال لي:

- أن نستسلم دون مقاومة معناه انتحار جبان.

بكلمات يقطعها أنينه خاطبني:

- إنْ لم يكُن بد من الموت فاخرجوا لهم، لا تموتوا مثلي على الفراش، وحدهم العجزة والمرضى مَن يهلكون في أسرَّتهم.

جمع قادته وخاطبهم من بين حشرجات الوجع:

- إنكم بين أيادٍ أمينة. أنا كلّي إيمان أن قائدتكم بشجاعتها وكياستها، وحسن تدبيرها وتمرُّسها ستقودكم إلى نصر مكين بإذن الله. ليكُن القدير برفقتكم.

عواء الذئاب لهب في وجه نور القمر، وأنت قريرة العين

أيتها الحمامة تتهادين تحت ضيائه، وكأنه لا شغل لك سوى ضخّ بلبلتي.

ليلتها لم يطرق عيني وَسَنٌ، ولم يتوقَّف الطير عن رفرفة أجنحته على رأسي. أتحيَّر بين الخروج والبقاء، أخاف أن أخرج ويموت زوجي وأنا بعيدة عنه. توقفت عن البكاء والدعاء، تركتُ من يعتني به وبابنتي، وقرَّرتُ الخروج.

الليلة بطعم الكابوس. أن تغادر زوجاً معشوقاً على فراش العذاب يتهيأ للموت الأليم منتهى البلاء.

أعداؤنا يحرمونني حتى من الاعتناء بزوجي وهو على فراش قد لا يغادره إلا ميتاً. من غير السهل أن يكون لك عدوّ، لكن أن يكون القدر عدواً لك، لا يؤتيك ولو بفرصة البقاء قرب زوج تداهمه سكرات الموت بألمٍ فظيع، فهذا ألم أفظع.

صعبٌ عليّ مصالحة قدري الذي ما فتئ يربطني إلا بما يحاول أن يدمرني.

أعداؤنا يقتلوننا خطوة خطوة، في قربهم وفي بُعدهم، في حضورهم وفي غيابهم. بنتنا بعمر من ثماني سنوات وككلّ الصغيرات تودِّعني وتبكي، وأنا لم أجِدْ لساني يومها كعادتي لأكلِّمها عن الحياة والموت، عن الصبر والجهاد والثواب.

قسَّمت العساكر على الثغور والمراكب. خمسمائة فارس ومثلها من المشاة. قلت لهم لن نترك في المدينة سوى مجموعة صغيرة يدعمها النساء والأطفال.

توجّهت نحو القائد المَهْدِي القُرْطُبِي :

- واجبكم اعتراض طريق المهاجمين. إنْ وصلوا إلى مدينتنا سيدمّرونها، ثم سيطاردونكم.

لم نكن نملك الأسلحة الكافية، لكنني كنت مطمئنة. خلق الاطمئنان ضروري لكلّ قائد. أخرجنا كلّ المراكب التي كانت راسية في ضفاف نهر مَرْتين، كنا نضعها هناك حيث لا تستطيع سفن الإفرنج الكبيرة ولوج النهر لملاحقتها.

بين الأشجار المحيطة بالنهر سيختبئ بعض الرجال والنساء وكل من يقدر على الحرب، سيحملون السيوف والنبال والمناجل والسكاكين ومقاذف الحجارة، والبنادق وكرات النفط. رجال ونساء آووا إلى ضفاف النهر ليعيقوا المهاجمين وفلائكهم إن عزموا على اختراق الوادي.

المدافع الصغيرة والمجانيق البربرية ستكون فعالة على التلال التي تحدّ سفوحها بالمدينة. كانت الأوامر محاصرة المهاجمين من الخلف. مداشر أَنْجَرَة والحَوْزْ من محيط المدينة مدّتني بنساء يقاتلن بضراوة، ويُتقِنّ مفاجأة الأعداء من فوق الأشجار.

كنت متفائلة وحذرة، أحارب خوفي وأسترق الشجاعة جرعة جرعة. الرعب أثناء الدفاع عن النفس يولّد الشجاعة الكبرى، وحدها الكفيلة بقهره.

أرسلت رسائل استنفار إلى قادة القبائل، ورؤساء المراسي

والحاميات التي تحاصر مُدننا المحتلة. بعثتُ بأحد رجالي بخبُر أخي إبراهيم أمير شفشاون الذي كان يحاصر مدينة طنجة والثغور المحتلة حولها... بعثتُ رسولاً إلى القائد بَارْبَا رُوسَا. قد يصله متأخراً. وزَّعت المجاهدين على الشواطئ ثم توجَّهت مع الرجال البحارة إلى مرسى مَرْتِين للخروج لملاقاة المهاجمين.

قبض الليل على الدنيا. بين مقابض من قلق كنت على صهوة الجواد أستتر بالليل لأرشف دمعي. نعيب بومة سوداء على رأسي يشقّ ليل السماء. أسأجِد زوجي حباً إن كُتِبَ لي ورجعت؟

خرجنا بالمراكب. لا نبتعد عن بعضنا كثيراً ولا عن الشواطئ. البحر صامت يلاعب طيات مائه، كعادته لا يأبه لا بخططنا ولا برعبنا ولا بوجودنا... نحن وحدنا مَن ابتُلي بهذا الابتلاء.

تصاعد أدخنة من على الجبال والتلال المطلّة على بحر تَرْغَة، وانعكاس شعاع المرايا المعدنية يخبراننا أنّ المهاجمين اختاروا مباغتتنا من تلك الجهة.

رجالنا كانوا موزَّعين على قمم الجبال والتلال، ليعلنوا لمراكبنا وفيالق الخيالة والمشاة عن المنطقة المهاجَمة. مرة أخرى يريدون تدمير مرسى ترغة ومن ثم الهجوم على تطوان.

قام «الرايِسْ المرابط» من على صاري السفينة بتثبيت الراية الخضراء. راية تعلن لجميع المراكب بالسَّيْر جهتنا. هيأنا

الأسلحة والمدافع وقلوبنا، وشدَّ الربان على المقود في دورة مسرعة. عمّ الصمت الذي يسبق الاستعداد للحرب، قبل أن تتعالى النداءات إلى الله. أطلقنا صرخة الهجوم، واتجهنا جهة السفن المهاجمة في محاولة لمباغتتها وتطويقها بين نيران مراكبنا العشرة. نرفع أصواتنا، لتهتك رعبنا وتدفع بنا إلى الشجاعة.

واجَهَنا مركب سرعان ما تراجع في سرعة كبيرة، والتفّ خلف خليج تَرْغَة حيث فاجأتنا عدة سفن ضخمة مكتظة بالعساكر والمدافع، كان المركب المهاجِم طُعماً لنا حين فرّ. لأول مرة كنت أرى سفناً من هذا الحجم.

قلت يومها لو عشتُ سأجمع صانعي السفن من ترغة وقاعْ أسْرَاسْ وبَلْيُونْشْ، ومن بلاد الأتراك والبرتغال وسأبني في وادي مرتين ورشة لصناعة السفن الكبيرة والسريعة مهما كلفني ذلك. فنحن لا نملك سفناً كبيرة بمواصفات جيدة للقتال.

أمطرت طريقنا كرات نارية رغم بعدنا. مدافعهم تطير كراتها إلى مسافة أكبر بكثير ممّا تستطيعه مدافعنا.

كنا قد رجَوْنا الملك الوطاسي أن يمدّنا بمدافع كبيرة لها قدرة رمي أقوى. اشترط تعزيز رجالنا لقواته، والتخلي عن مواجهة البرتغاليين لأنه عقد صلحاً معهم، خاصة وأن مملكته لم تعُد تتحمّل ضربات منافسيه السعديين في الجنوب. رفضت.

رفعتُ رايتين من لون أسود فوق صارية المركب. رفع الرايتين تعني أمر مراكبنا بالضرب والفرّ والكر. أمطرونا من

جديد بكرات من نار. طريقتنا في الضرب، واللف بسرعة على السفن، وإعادة ضربها من جانب مغاير بكراتنا المدفعية أربكت الغزاة. واجهتنا سفينة كبيرة بقذائفها النيرانية بينما شرعت السفن الأخرى بإنزال عساكرها في القوارب.

ردّ رجال القائد الغُمَارِي حامي ترغة. كرات من النار أطلقها رجاله من مدافع صغيرة أصابت قاربين ومزّقت عساكرهما. تراجع جنود قارب ثالث كان قد وصل إلى الشاطئ في هلع، حين علَت ألسنة نار كحزام ناري على الساحل أشعلها المجاهدون.

اختلطت أدخنة النيران. مراكبنا بين التصويب والهروب أصابت سفينة كبرى، بينما تصاعدت النيران من سفينة أخرى قصفت من على اليابسة. قبل الغروب فاجأتنا مراكب البرتغاليين تشرع أشرعتها للرحيل.

رمى البحر بجثث من عساكرهم. نزع الأهالي لباسهم العسكري وطافوا بها على المداشر البعيدة كدليل على انتصارنا.

تحطّم لنا مركب، وخسرنا عدداً من الرجال ومن أهالي القرية حين سقطوا تحت كرات النيران، وهم بين الأودية في انتظار نزول المهاجمين.

الحرب موت ودمار. وصلت إلى تطوان والناس مبتهجون بانتصارنا. ما كنت أتشدّق به أمام أهلي ورجالي بأنه انتصار، كان في قلبي هزيمة وأنا عائدة لأطمئن على زوجي.

وجدت حالته قد ازدادت تدهوراً. هالة حلول الموت تصبغ كل جسده، عروقه بدت ناتئة خضراء يغلِّفها جلد رخو. صرتُ أعانق بحرارة الجسد الذي كنت أعشق أن أتمرغ تحته وأتدفأ بحرارة شعيراته. بين موجة تعذِّبه من السعال المكتوم المقطوع، قال لي إنه لا يكره الموت إلا لأنه يُفقد ضحيته كلّ قدرة على المقاومة، وتحوْل بينه وبين الدفاع عن نفسها.

أقبِّل يديه الذابلتين وألثم العروق الناتئة:

- لا تدعني . . .

أنين زوجي وهو يعضّ على شفتيه منعاً للصراخ، وحشرجته بصوت مرتفع محاولاً البحث عن نفَس يرد له الروح، جعلا كراهيتي تزداد للحرب، بهزائمها وانتصاراتها، لتجثُم على قلبي الهزيمة الكبرى، كراهيتي للحياة. منذ بضع سنوات مات والدي، قال لي من تكلَّف بغسل جثته قبل الدفن إنّ جسده كان كله مثخناً بالجراح، والدور الآن على زوجي.

الدنيا دون حرب تنفث عواصف من الآلام، فما الذي ستنفثه إذا اشتعلت بها الحروب؟

* * *

المنية تنشب أظافرها. يا مُنْظِري، يا بهي المنظر. . . يا مَن تمنَّيت ألّا تفصل بيني وبينك مشاغل الأيام، ها هو الموت تهيأ ليفصل بيني وبينك.

أيها العزيز ستتركني في منتصف الحياة، في وسط الطريق،

والطريق نيران ونيران، وبدونك لا مظلَّة لي من حرائقها، والشجرة، أنت، التي عوَّدت نفسي على الاحتماء بفيئها من لسعات الزمان تحترق، لتحلّ بقلبي صحراء معتّقة حرارتها من لهيب فراغك.

كنت أصلي وأدعو الله أن يشفيه ويبقيه فوق رؤوسنا، وحين تعفَّنت جراحه وتهرأ لحمه حتى تدوَّد رغم العناية الفائقة، وخنقني اختناقه الشديد، صرتُ أصلي وأدعو الله أن يأخذه إلى رحمته ويلهمني وابنتي صبراً.

أيها المنظري، حين كنتَ تخرج للحرب كنت تشير إلى كرسي الحكم وتقول لي:

- املئي فراغي.

وأنت تغيب الآن في مهب الغياب، من يملأ فراغي بعدك؟

أن تغيب معناه أنك ستترك لي فراغاً لا أملك وسيلة لملئه. كم رغبت أن لا يكون بيني وبينك فراغ، وما دام فراغ الموت حقيقة، تمنيت لو تجمعنا يا الله ميتة واحدة. ولكن ها هو الموت ينادي عليك أنتَ ويخون مبتغاي. أأقتل نفسي وأعارض قضاء الله؟

الحياة هي أن نملأ فراغاً بين زمن ولادتنا وزمن موتنا. ملء الفراغ هذا ملأني حزناً. هل الزمان في حاجة إلى أحزاننا كي يواصل مساره؟ وهل بنسغ الأتراح وحدها يعيش ليخطّ فراغات أخرى تملؤها حيوات أخرى بلَوْعاتها؟

أغرق في الصلاة وأجهش بالدعاء والروح تنازع زوجي. نَفَس يدخل بصعوبة ولا يخرج، ولا سبيل لي لإخراجه.

غابت الحياة عن وجهه.

قضيت الليلة في التحديق في وجهه المنطفئ. وددتُ لو أتأخر في دفنه. حذَّروني من أن تتعفن الجثة، وتُطلق ما يسكنها ويسكن كل إنسان من نتانة وقبح.

الفرح نادراً ما نلقاه، وحين نلتقي به يعبُر أمامنا على عجل. على عجلٍ رحل عني حبيبي، مَن علمني نشوة حياة ثانية، ومنحني حياة داخل الحياة.

لولا إيماني بالله لما تحمَّلت ما عشته. في اقتسام الفجيعة مع أهلي كان صبري، ولولا كثرة الباكين حولي على أحبائهم لقتلتُ نفسي. يتوزّعني موت زوجي وأحزان أهلي على موتاهم ضحايا معركة تَرْغَة، وأنين الجرحى من المجاهدين. المسعفات مافتئن يقدّمن ما يأمر به الطبيب.

في مارستان القلعة مات الوَهَابْي، محاربٌ محنك. خسارة كبرى لنا. كان نور وجهه يذوي وهو يئنّ من شدة آلام حروقه. احتقن وجهه، علا زفيره وكأنّ الموت يخبطه ثم همدت أنفاسه ليسكن أنينه وتنفُّسه.

العَلَمِي لم يتوقف جرحه عن التورم رغم إسعافه بلبخات من عشب «تَرْهَلْ» تهيّئها المسعفات. كان يصرخ ويهذي. بِلْفَقِيهْ ظلّ يلعن ويسبّ ويصيح على الله. الفتى اليافع اللَّنْجَرِي أيضاً كان ينادي على الله ويعتزّ بموته شهيداً.

حضرت جدتي من شفشاون تواسيني:

- آه يا ابنتي، نحتاج في حياتنا هذه إلى بحر من الصبر. شمعدان وصليب وهلال يفتكون ببعضهم بعضاً بالحديد والنار... يتبادلون النصر والهزيمة. تُرسل الردى شياطينها لتتملك عقول البشر، ولتدفعهم إلى خلق أعذار خادعة لاقتتالهم... كلّ واحد منهم يحمي خديعته، يبجّلها، وهي لا تهيئه إلا ليكون ضحية للموت.

استرسَلت:

- ما البشر إلا حراسٌ لخديعة تضخم في قلوبهم وحوش الشر... وغول الردى يظفر الظفر الأبدي... هو غول بجوف همجي لا يستطيع أن ينتظر موعد ناموس الحياة، يشتهي سَرط ضحاياه وهي معجونة بالدم والعفن، وكأنه لا يستطيب غسلها قبل أخذها، ولا يسعد إلا حين يأتيه الموتى جماعات.

تتوقف عن الكلام، تضرب الأرض بعصاها قبل أن تُكمل:

- لا، البشر هم الأغوال الذين يستعجلون حضور الموت ولا يدعونه ينتظر دورته الطبيعية.

تُضيف في يقين:

- ولكن حتماً ستحضر الحمامة.

من بين الغمّة الجاثمة على قلبي، رفعت نظراتي وخاطبتُ جدتي في غضب:

- أجيبيني يا جدّتي، أين كانت حمامتك منذ البداية حين عزم قابيل قَتْل هابيل لتشتعل القلوب حروباً، ولـمَ سكنت في صمتها ولم تطفئ نار حقدهما بنثر محبَّتها؟ أم أنها ليست سوى حمالة لِما يحمله الإنسان، من ضعفٍ وضغينة، ومتعة الفرجة على الاقتتال؟

أوقفت كلامي حين وقفت جدتي تتهيأ للانصراف وكأنها تتهرب من أسئلتي. مواساة جدتي فاقمت ما بي. وحده التحضير للجنازة أنساني ارتحالي في الألم، حين اهتمَمْت بالدفن وإعداد وليمة عزاء تليق بحاكم المدينة.

* * *

من على تلّ المقبرة يمتد البحر بعيداً في زرقته، وطير الحمام منفوش الريش يتأوّه بلحن شؤم. أرملة أنا الآن. ستائر من تراب أُهرِقَت على جثمان زوجي وعلى روحي. غير بعيد عن الرجال الذين يسكبون التراب وقفتُ أنا وابنتي نُريق دموعنا.

أتقبَّل العزاء. هو ما يتبقى لنا ليخفِّف عنا لوعة الفراق. قلبي غارق في لون الليل، وثيابي من بياض لعلّها تخفِّف ما يسحقني من سواد.

يلفني إحساس بتشتُّت متلفِّع بالرهبة. الرجال يتلون القرآن وأنا نهر من الليل الثقيل يجري ويجرفني إلى دعاء صامت. هدير صمت ثقيل يطرشني.

كل مَن عليها فان ولا يبقى إلا وجه ربنا الأكرم. هو الكلّ محكوم بالموت، إلا أنّ أقبح موت هو الموت الفظ، الفاجع، قتلاً أو حرقاً أو بتمزيق على خازوق أو تعفُّناً من جراح. موتٌ بألم مريع، طريقه العذاب الأكبر، ذلك مآلنا. تهلكة كان يقول عنها الْخَانْدْرُو كلما عاد المجاهدون مهزومين إلى شفشاون:

- ما هذا إلا انتقام بسيط لما فعله أجدادكم بأجدادنا حين احتلوا أرضنا.

كنت قد أخبرت يوماً الأستاذ الهبْطي بما يدَّعيه، فأجابني:

- أجدادنا ما هبّوا لدخول الأندلس إلا طلباً من أهاليها للدفاع عنهم من حكام أتوا من الشمال لحكمهم عنوة فظلموا أهلها. ولقد عاش هناك، قروناً من الاختلاط والامتزاج، المسلمون العرب والمغاربة والمسيحيون واليهود، حتى إن أحلاف مصالح شكّلت بين مسلمين ومسيحيين ضد مسلمين، وأحياناً مسيحيين ومسلمين ضد مسيحيين.

خالي كان يقول لي:

- إنْ كان أجدادكم، أو أجدادنا قد أخطئوا فما ذنبنا نحن حتى نتحمَّل أخطاء مَن مات منذ مئات السنين؟ يظهر أنه كُتِبَ على الإنسان أن يحيا تحت تأثير ما يسيطر على ذاكرته ويحتلّها.

للأسف، إن للماضي سلطة كبيرة علينا، إنه يشاركنا حياتنا بقسوة كبيرة. لن يكون الإنسان إنساناً إلّا يوم يستطيع تحرير ذاكرته.

رحيل زوجي تركني وابنتي كقشّة معجونة بالوحل قلب وادٍ تهدر مياهه، وتقتلع شجر الصبر.. كعصفورين بأجنحة مقزبة ومقزمة...

نحيب ابنتي يعلو. أدعوها للصمت والاستكانة إلى وطأة القدر وقراءة القرآن. يزداد عويلها. وجدتُ نفسي كحبة تراب تعركها الريح، الريح التي كنت أحتمي بعويلها من هديري تنزل على دماغي لججاً من عجاج.

علَت طلقات المدافع والبنادق في السماء. وقف القادة أمامي، أقسموا بالثأر لحاكمهم تحت رايتي. تبعهم أهالي المدينة.

بايعوني حاكمة. الراية الحمراء على صومعة القصبة نذير لموتٍ يوميّ لا يستكين ولا يرحم... عليَّ أن أعتنق مزيداً من الصبر والشجاعة لأكون أهلاً لما بُوْيِعْت له، وأنْ لا أدعهما ينفلتان مني حتى لا تنفلت منا الحياة أنا وأهلي.

* * *

أكفكف فجيعتي. لم يكن له أن يموت ليتركني وحيدة.. ليس الموت وحده أكبر بكثير من الإنسان فحتى الحياة كذلك.

يجنّ الليل ويشرع جنوني في النقر عليّ. يهرب مني النوم ويحلّ محله قلق وخوف. أتفقد أسوار المدينة... أباغت

عساكر الثغور وحاميات الحصار... أفاجئ حراس أسوار وأبواب المدينة... أتفقد أبواب القلعة ويقظة العساكر... من برج القلعة أفك رقعة الليل بعيني خيطاً خيطاً لئلا يتسرَّب عدو تحت لحافه... نومي كوابيس.

أيها الفقيد، الدنيا دونك خوف وخواء. تحضنني الوحدة بعدما كانت قد امتلأت كل أيامي بك. عليَّ أن أعتاد موتك بعدما تعوّدت على حياتك. يا رب أكُلّ ذلك الزخم من الحياة لم يبقَ لي منه سوى الذكرى؟

ملاذي، لم يبقَ لي بعدك سوى تشتُّت يشتّتني. واحات الروح تجفّ، أمطر جوفي بذكراك، قلت لتكن ذكراك ندف ثلج تثلج صدري وتخمد نيرانه، لكن ما لهيبي خبا وما لوعة فقدانك همدت، وما خوائي امتلأ.

أيمكن لقلب الإنسان أن يحيا بذكرى الحبيب فقط؟

لا جواب عندي، حرقة الوحدة وعناء الحكم، جمار الحرب وسعير رمادها، كفيلون بالرد على أسئلتي.

أأنساك وأتوق لتغييرك؟ لا أتخيل رجلاً يبلِّل فراشاً سبق وأن سقيت فيه أزهاري، بماء وردك.

عدد من الخُطّابِ تقدموا لي من شفشاون ومن تطوان وحتى من الإفرنج والأتراك. قادة وتجار، وفقهاء دين. كنت أجد نفسي رافضة لطلبهم وكأنّ السنوات القليلة التي عشتها معك ولّدت لديّ إشباعاً من الرجال.

صعب الخلاص من ذكراك، ولو غيّبت ذكراك توقظها ابنتنا. لقد ربيتها، كما كنت تطلب مني، تربية تليق بحاكمات محكومات بقدر فاجع، تصنعه حروبنا غير المتناهية. كانت تطرق رأسها وتصمت حين أحدِّثها عن مواجهة الموت حتى لا نموت. ربما أسأت لبراءة طفولتها، كنت أهيئها لأحشوها بينبوع لا ينبض من الصبر، حتى تتحمل مستقبلاً غامضاً ملؤه الصراع والهزيمة للضعيف.

أحياناً كنت أجد نفسي كأنني أهذي والبنت مستلقية في فراشها تقاوم النوم:

- الدنيا غابة لا مكان فيها للضعيف والجبان.

أكرِّرها على مسمعها ثم أعود ألوم نفسي على تهييجي لها. كنت أحسّ أنني أكوي فرحها وبراءتها بسفود من نار.

الأبناء زينة الروح ومحنها. أمحو عن وجهي ملامح القسوة وأعانقها حين أهم بالخروج إلى المعارك، تنكمش على نفسها، يتضاءل حجمها، تحني رأسها، أضمّها إلى صدري، يمنع عني درعي المصنوع من الحديد الإحساس بدفئها، تهطل الدموع من عينيها يتبلل وجهها، كفرخ حمام ضمَّخه القطر. أتسلل من عناقها، أبعد عيني من عينيها، ألتحف حنقي وأمتطي جوادي.

وجهها لم يكن يفارقني وأنا أركب البحر... لا تفارقني ابتسامتها من بين عينين مفزوعتين كغراب الجبل.

زوجي العزيز، أتدري أنني كنت كلما ألقيت على وجهها النظرة الأخيرة قبل الرحيل إلا ويطالعني بريق عينيك يرتسم على وجهها؟

* * *

ماذا تريدين مني أيتها الهاربة الخفية المحتمية في عنان السماء؟ أن أقلش على عشي وأنتظر أن ينهشني، مع فرخي ومع من تبقى من أهلي، الهمج والقردة، بعدما فتكوا بزوجي وخيرة أهلي؟

أترغب في أن أصغي لندائك يثنيني عن الحرب أيها الطائر الولوال؟

متى كانت الطيور التائهة تدل البشر على الطريق؟ أنت من نسلٍ ترفضه الأرض، ما تكاد تحطّ مخالبك عليها حتى تعود محلقاً تائهاً في السماء، ولا تعود تحتمي بنا إلا حين يدوخك الجوع والريح، والتعب ولهب الشمس، والعمق الشاسع لسماء الله.

ارحل عني فلن يوقفني تغريدك. دعْ عنك لومي فأنا ما خرجتُ للقتال إلا لكي لا أموت موت الأنذال... وما ذهبتُ إلى الموت إلا لتأجيل موتي.

ارحل عني برَجْع هديرك المزعج. أنت وأمي تتحاملان عليّ. كلّما سرجتُ خيلي للخروج للجهاد إلا وهدَرْتَ جواني، واعترضت أمي طريقي راجية:

- رفقاً يا ابنتي بالنصارى، فما هم سوى أبناء وبنات خالاتك وأخوالك وأبناء عمومتي. . .

تزيدني نصحاً وكأن ما يعنفني غير كافٍ:

- ألا يكفي ما تحاربنا؟ كلّ الديانات تدعو إلى عبادة الله فلمَ نتقاتل وروح كل الأديان هي الفضيلة والمحبة؟!

عدد من مدننا يحتلها الإفرنج. وعدد كبير من أهلنا أسرى وعبيد لديهم، نفديهم بالمسكوكات الذهبية، ونبادلهم بما نملك وبمن نأسره من أهلهم.

لم يفلح حصارنا الأخير لمدينة طنجة الذي دام ثلاثة أشهر في تحريرها. خسرنا عدداً كبيراً من رجالنا. لا خيولنا ترتاح ولا مراكبنا. قرّرنا خرجة بحرية لمباغتة العدو لتحرير جزيرة بَادِسْ من القشتاليين ولأسر من سنُبادِل بهم أسرانا.

على المركب ملتحفة لباس القتال، حديد على صدري وحديد على قلبي. . . يرافقني الرَّيِّسْ خَيْرُونْ قائداً للحَرْكَةِ البحرية. تساندنا سفينة لرجال خير الدين بَارْبَا رُوسَا، والذي كان قد عيَّنه السلطان العثماني سليمان القانوني أميراً للبحر. هاجمنا ليلاً قلعة الجزيرة التي رمّمت وعززت دفاعاتها لتصبح منطلقاً للهجوم علينا. .

لنهاجمهم قبل أن يفاجئنا هجومهم. للَّيل صمت وقور أَفْقَدْنَاهُ إياه حين باغَتْنَا عساكر القلعة، قُتل من الحامية العسكرية

الكثير وهرب الباقون تاركين نساء وأطفالاً، ورجالاً جرحى وعساكر أسرى.

حرَّرنا الجزيرة. انطلقنا بحمولتنا من الغنائم والسبايا. الحرب تجعل أسوأ ما في البشر من خبث وشرّ يطفو. عشرات الأسرى من نساء وأطفال وبعض الرجال. النساء يبكين قتلاهن وحالتهن وحال أطفالهن. أطفال بوجوه سفك الهلع نضارتها، يرتعدون ويتشبثون بتلابيب أمهاتهم.

الأسيرات محفوفات بالمهانة والخوف يستعطفن رجالي باللغة القشتالية. حزن كبير يصبغ وجوههن، كأنهن في المحشر. معظمهن بعيون خضراء وشعور ذهبية. عيونهن يكسوها الدمع والغبار وغلالة الذل والانكسار. إحداهن كانت تشبه أمي. وجهها المرتعش ذكّرني بوجه أمي المقشعر الدامع يوم عاد أبي منهزماً وجريحاً، من هجوم على مدينة سبتة من أجل تحريرها.

كنت منهكة ونحن عائدون بما سبيناه. نفسي تتخبط في هزيمة الانتصار وتلفظني. الموج يلتطم على حواشي المركب، والدلافين ترتمي فوق الماء وتغوص لتعلو من جديد، كألمي...

شاركت من قبل في عدد من الخرجات الدفاعية لاعتراض السفن الإيبيرية الهاجمة علينا ولم أحسّ يوماً بالضنى والحزن نفسهما، ربما لأننا أسرنا عدداً من النساء والأطفال. حاولت أن أخفف عن نفسي، قلت سنفتدي بهم أسرانا لدى الإسبان ساعة وصولنا إلى تطوان.

قلبي كساحة المعركة زنخ برائحة الدم والبارود وعويل الجرحى وآهات الأمهات. أطلّ على العنابر وأتطلع إلى وجوه الأسرى، وجه ابنتي رُسِمَ على وجوه كل الأطفال.

أية حكمة عادلة هذه حتى أقتُل من أجل أن لا أقتَل، أي بطولة وتحرُّر مقيَّدين بهتك أرواح وتيتيم أطفال، لماذا أقتل مَن يشبهني ويقتلني من أشبِهُه، ما الذي يفرقنا؟

يحضرني كلام خالي:

- لا تفرقنا سوى كلمات... ومطامع. الحرب تجعل الوحوش تخرج من قلب الإنسان. يظهر أننا نتقاتل، نحن مَن نتشابه، حتى نصبح متشابهين في الفجيعة والهلاك.

حاكم سبتة المحتلة أَلْفُونْسُو دي نُورُنْهَا قال لي يوماً ونحن نحاول أن نتفق حول الوصول إلى سلام وتبادل للتجارة بيننا:

- كلنا قتلة وكلنا نحمل في قلوبنا وردة للحب. علينا أن نسقي الوردة.

استلطفتُ كلامه، بعد شهرين هاجم بعساكره ثغرنا بجبل أَنْجَرَة وقتل عدداً من الرجال والنساء والأطفال.

رفعت عيني إلى السماء:

- أيها الطائر. الإنسان حمّال لشريعة الدم في صدره يبحث عن سبب يذكّيها... نحن نحمل في صدورنا ذئاباً ووحوشاً مفترسة نأذن لها في الحرب بالخروج لتفتك بالآخر.

لم يُجِبْني، فهمهمتُ لنفسي:

- الحرب لا تُخرج منّا إلا الأسوأ من خبث وشرّ. مَن فينا قابيل ومَن فينا هابيل، أم أننا نتبادل الأدوار حتى يحلّ الفناء؟

يا طير الشؤم لِمَ ترمقني بغضب وتأفف؟ لم أفكر يوماً أن أكون قاتلة، ولنفترض أنه غلبني سوء نيتي وقلة حيلتي وضعف تعقلي، فَلِمَ لم تلجمني وتلقّمني من دفء ريشك ما يستر عُرْيَ روحي وتخبّطها، وما يدثّرها بتقوى وطهر ومقدرة على العفو؟

يتوحد فيَّ الإنسان والشيطان. فلا أنا شريرة أرتاح في شري، ولا أنا برحيمة طيبة لا أقوم إلا بأفعال الخير... وإنْ كنتُ قد أخطأت فلستُ سوى سليلة نسل من مخلوق غير معصوم.

كأن الطائر نعق بغير اهتمام:

- لا خير مطلق ولا شر مطلق... وحدها النفس الميتة التي لا تتخبط.

سلبني من تخبُّطي أنين بحار جريح وهو يشدّ على جرح في فخذه. غير بعيد مني كان خَيْزُونْ جالساً مغموماً مولياً ظهره للبحر، يمسح ما علق به من عرق وقذارة المعركة ويضمّد جرحاً في يده...

فكرتُ أن أخاطبه:

- ابكِ إنْ شئت، فالدموع إنْ لم تُساعدنا على غسل الأحزان فهي تخفف من حدَّتها. . .

ما كان قد تبقى لي من صرامة تكسر. أوقفت ما ينكِّل بي لأتمكّن من أن أسأله عمّا به. في إباء ظلّ مطرِقاً لم يردّ عليّ. سكوت عكر يكلمني. هو راغب في الصمت وأنا كلامي الصامت يحاصرني برغبة في البكاء. كنت على أهبّة القول له لا أحتمل حزن الرجال، حين خنقتني حشرجتي.

* * *

ما الذي يُحزنك أيها المحارب الشجاع والبحار المتمرِّس؟ أعطفُك على هؤلاء السبايا أم تتذكر ما اقتُرِف في حقك وحق أهلك؟

ألم ننتصر في المعركة، أم أن انتصارات الحروب هي فرح بلون الوحل؟ نعم انتصاراتنا وهزائمنا بطعم الوحل يا خَيْرُونْ.

أعاقني ارتباكي حين عزمتُ أن أدنو منه. ظلّ قاعداً في استرخاء، يمدّ عينيه إلى المدى البعيد من البحر من حيث رموه الفرنجة.

بأمرٍ من محاكم التفتيش أُطْلِقَ العنان للفتك بإخوته وأهله، قبل أن تصادر كل ما كانوا يملكونه من سفن تجارية، سبق أنْ قال لي إنّ الفتك بهم كان مروعاً.

شمَّرت عن قسوتي لأقول له:

- لِمَ أنت غارق في الهم؟ ألسنا أبناء حياة هي بحر من

القسوة؟ ألمْ يحثّنا الدين على أن لا نقول لها أفّ، ولا ننهرها، وأن نحبّها رغم كلّ قسوتها، وأن لا نرغب في هجرها؟

خانتني قسوتي، فوجدتُ نفسي أنفر ممّا يدور في رأسي، تملَّكتني رقة في الكلام وخاطبته برجاء:

- حاول أن تنسى ما يكدِّرك... النسيان يقاوم التعاسة. القمع الطويل لذكرى ما ألمَّ بنا ونسيانها عنوة، هما الوسيلتان لتغييب الذكريات الأليمة عن أذهاننا...

رفع عينيه بتأنٍّ نحوي:

- سيدتي، جميل لو كانت السعادة والتعاسة تكمنان في مخيلتنا فحسب، فتجدنا نزيد من قدرهما ونخفضه حسب حاجتنا. من المؤسف أنّ الإنسان هو الأشدّ كدراً في الحياة من بين الخلائق والأشد خلقاً للكدر.

أخرسني جوابه وتيّهني...

كنت أتمنى لو أطيل معه الحديث، لكن رغبتي في الكلام انهزمت، وقلبي على غير المعتاد.

تذكّرت حين حللت علينا بمدينة شفشاون طائراً يافعاً مكسور الجناحين. نُتِفَ منك ريشك، حتى لم يبقَ منك سوى زغب شفاف بلون السماء يعكس ضنى قلبك الرخو. كنت تثمل بماء النسيان، كما كان خالي الأكبر يسمي الخمر، تترنح بين حانات المدينة، ترفع ألمك إلى السماء... وتعود لتجهش بالإيمان بين الجوامع متضرعاً إلى الله.

باسم الله كنت قد أُخرِجتَ من ديارك، وفي بلد الإسلام باسم الله اعتبرك بعضُ الرعاع من القوم دخيلاً من بلاد الكفر، ناقص دين، فمنعوك من ولوج المساجد، وشكّكوا في تدينك.

يوم زرتك أقدّم لك العزاء ممّا ألمَّ بك وبأهلك كنتَ بدأت تتعافى. خاطبتني وأنت تتّخذ من حزمك سنداً:

- أيتها الأميرة ما زلت قادراً على أن أقف وأحمل قبري بين أضلعي. لن يمروا إلينا هنا إلا على كبدي.

قدّمتَ لي مفتاح بيتك في غرناطة وأنت تقول لي:

- احتفظي لي بهذا المفتاح، إنه يحمل رائحة داري بالأندلس، قد أعود يوماً لأعدّ جراحي على رخامها، وأطهّر منخاري من رائحة الموت في ماء فسقيتها، وأشمّ أوراق زنبق حديقتها.

تابعتَ قولك:

- عددٌ كبير من العائلات المهجّرة من الأندلس يحتفظون بمفاتيح منازلهم هناك في انتظار العودة إلى ديارهم. لنحتفظ بالمفاتيح فعلى الأقل لنفتح بها ذاكرتنا.

لملمتَ جراحكَ. وبعدما شفيتَ، أصبحتَ مجاهداً شهماً ضد الغزاة في البرّ والبحرّ. اشتريتَ أنت وأخوك الصغير مركباً نصفه كان قد دمّر، فمتما بإصلاحه وتجهيزه وانضممتما إلى المجاهدين. هجومكما على مراسي البرتغاليين والقشتاليين وتخريب سفنهم الحربية صار شوكة في حلق غزاتنا، إلى أن دُمِّرَ

مركبكما وأنتما تهاجمان مرسى سبتة، قُتِل أخوك وخمسة من البحارة ونجوت أنت وانضممتَ إلى رجالنا مع مَن تبقّى من رجالك.

أيها الرجل، دمار المعركة وما خلَّفه من دخان داكن معربد داخلي دفعاني أسرق وهجاً من عينيك. قنوطي وأساي جعلاني أطيل النظر، عينان خضراوان وشعر أشقر مقصوص، ووجه دبغته الشمس وملح البحر ومرارة العيش... جمالك جمالٌ غامض محيِّر وسالب.

شيء ملتبس عجاب فاجأني، يسافر في مشاعري، يلتوي عليّ لأعرف أنّ إحساساً ما نحوك بدأ يغزوني.

لم أنَمْ، من على ظهر المركب أتابع ما يطوِّقنا من ظلام الليل والبحر. في لطف شرع الفجر يحتضن البحر، يطفئ صخبه. تشعّ خيوط شمس جميلة بهية آمرة البحر بأن يهدأ ويسكت... لم يسكت ما يتجاذبني.

أيتها الحمامة الغاوية كلما شمَّرت عن يدي لتقبّل قدري، وطهرت نفسي من أحلامها إلا وأجدك تعودين تشغلينني بأحلامك.

خَيْرُونْ يطلّ على حاشية المركب. أرمي عيني إلى البحر وإلى الرجل، أروي ذبولهما في امتداد المياه وفي عينيه، أعترض نظراته، تستقر في أحداقي. عيناه بلون ماء شلال رَاسْ الـمَاء بشفشاون في فصل الربيع، ترشقاني وترشاني ببريق يحبّبني في

الدنيا. . . للعينين فتنة، لها من السهام الفتاكة ما لا تحمله باقي أعضاء الجسد.

أيتها الحمامة:

- كُنْتُ طائراً حراً فقيدَتْنِي نظرات عينيه. عيناه ساحرتان يجمّلهما شجنٌ شفيف بلون عمق السماء. . . جمال نظراته يغريني بأنْ أتحرش بالهوى. جنون أنْ تتحرش بالهوى والهوى مجنون. جنون أن تتحرش بمجنون. جنون هيّجه مطر العيون، زخات نظرات عينيه أيتها الحمامة.

انظري، إنه جميل والجمال يثير العشق ويهيجه. ألقٌ يبرق من بين سحناته المصبوغة بغبار من القهر ويحاصرني. بين نظراته إغواء متوحّش. . . متوحش. كأنني بدأت أشتعل حباً من وقدة جمال شرس تفوح منه رائحة الرجال، وعطر الغابة.

لا فرق بين حبٍّ يأتينا فجأة وحبٌّ يأتينا على مهل. فاجأني حبك وتفاجئني الرغبة فيك يا خيرون. قلت:

- ليكن إذن حبك . . .

* * *

يستهدف قلبي سهمان: الحرب والحب.

سهمٌ يُدمي شراييني ويُشعل طريقي جماراً، وسهمك يا خَيْرُونْ يرمِّم ويهوِّن المشي على الفحم الساخن.

بين الحرب والحب أمشي على حبل مشدود راؤه من حديد سخن، يطفئ الشوق إليكَ لهبه.

أنْ نموت من فرط الشوق والحب أجَلّ من أن نفنى من فرط الحرب. حرف الراء هوة من سعير بين الكلمتين. هوة من قتل وسفك وتغييب للحياة. بينهما دماء وحقدٌ ووحوش غافية في القلوب، وجثث ومحارق ومهالك.

لو كان حذفك يا حرف الراء كفيلاً بأن يحذف معه الأهوال التي تحملها حين تدخل على كلمة الحب، لحذفناك من كلّ الكلمات، ولنقّينا لغتنا منك ولدفنّاك وتبوّلنا عليك، وما كنا لنقعد نصلي ونتباكى في استعطاف طائر الجبل المخلص الغاوي ليشع علينا بمِنَنِه.

شبيهي في التغرب والنوى. أنا مسكونة بأشواق تحرّشني عليك، تهيّجني عليك، والعشق مدارج اشتياق واحتراق. على حافة المركب أهفو بشوقٍ لأطير معك. معك في مهب بحر أسيل، أيكما البحر؟

وحدي ما كنت قادرة أن أمحو عني الخوف من الليل والبحر. وحدي كان البحر يبدو لي في الليل مملكة للعفاريت، وبجانبك تراءى لي الليل ظلاماً من حرير، والبحر سحراً يعوّمني في حريتي، وأنت سرّ أجمل سحر.

أمواجك تتهادى على حافات روحي فتحرك مائي الراقد، ماء ترقرق ليطفئ ظمئي وحرائقي. أيها البحّار أحلامي نحوك تُبْحِرُ فتلقّف زورق أحلامي، وجذّفه إلى مرساك. كم جميل لو يأخذنا المركب إلى بحر السماء ولا نعود، لا نعود... سأفرد

ساعتها جناحي مجدافين يطويان الرياح، لأعلو إسراء ومعراجاً محلِّقة في سماء عتمتها أضواء ولا أثر فيها لطير جارح.

ياه... في عتمتي الساطعة ها هو القمر من فرحي يضيء كلّ الأرض. إنني بين قمرين، واحد كمُل ضوؤه، وثانٍ ساطع بهاؤه. بدر كامل وبدرُك أسعى للارتواء من وهجه.

* * *

لا تَستغربي أيتها الحمامة الحقود، فأنا لم أخُن ذكرى زوجي.

لا تحاسبني يا مُنْظِري في منامي ويقظتي، فما حلمت إلّا بأن أملأ فراغك الذي يحطمني. روحك تستحثني لكي أعشق الحياة حتى أتمكّن من صدّ صهدها وأتراحها، وخاطري ما حبذ لي خَيْرُونْ إلا لكي أقوي خيوط حبي لها، حتى لا أتلاشى بين المحن والوحدة.

أنت علّمتني أنه دون حب يضعف القلب وينكسر، فننكسر. وأنا أعلم أنك لا تودّ أن تراني بعدك خرقة تدوسها أرجل قذرة لزمان أخرق. فأنا لم أُرَاكِمْ بعدك سوى ما راكمناه من قبل أنا وأنت من الحروب ومخلّفاتها، وإنّ روحك لتعلم أنه منذ التحاقك بالرفيق الأعلى ما حلقت يوماً بعدك، وأن روحي المكدودة ما ضاجعت يوماً سوى ذكراك.

مدة العِدَّة التي تنحصر في أشهر وأيام قليلة قضيتها سنوات إلى أن فاضت الوحدة على روحي، فقطعت العدّة حتى لا تقطع ما تبقى من عمري...

وأنت أيها الطير الواشي، قبل أن تبيّن استهجانك لما يقدم عليه قلبي، دلّني على طريقة ناجعة أقعد بها راهبة في محراب زوجي لا أملك إلا ذكراه، متوسلة القدرة على بقائي وفية، ومستقوية بالصبر على الحرمان... حتى أظلّ مخلصة.

ربيع تلوَ ربيع. حلّ الربيع العاشر، أصبح الورد يبرعم وأنا قبالته أرتدي حلة يأسٍ. العصافير تغازل الأغصان، أغاريدها التي كانت تطربني لم تعُد تذكّرني إلا بالأغرودة البكماء لجسدي... أغصاني تطالب بأيامها من الربيع لترتوي قفاري وتغرد الأطيار حول جداولي... أحلم بأن أحلق وأطير وأتجدّد.

* * *

يُقال في غرناطة إن المرأة لا تعرف ربيع حبّها وسر ومتعة الحب إلا بعد وفاة زوجها أو طلاقها... فُتُوَّةُ الهوى بك يا خَيْرُونْ عادت لتتملّكني رغم عمري الطاعن في مكر الأيام. دعني أستمطر منك حنيناً يغسلني.

صرت أسهر في حضن أنس الليل وحضن صورته. فخّ الهوى لا مفر من شباكه سوى وصال الحبيب، والليل يستر العيوب، واللقاء في الخلوات لا يثير الشبهات. كان عليّ أن أتدثر في لباس فارس لألتقي به.

سحر ضربَ قلبي جعلني أتلهف لرؤيته، أخذ بلبّي ودفع بي كريح عاتية نحو مجهول غريب فاتن. نحوه. مستترة بغبش

الغسق، وكمن يحمل ناراً بين جوانحه ويحلم بإخمادها في عين ماء، قطعت الأفدنة خارج أسوار المدينة للقاء به.

النيران نيرانك يا رجل وعين الماء أنت. أهمز الحصان، قلبي يسرع متلهفاً يسابق الحصان في جريه. احترتُ في حبك وأحب أن أقول اللهم زدني تحيُّراً. أستميتُ للقياك. أسير إليك أسيرة هواك والناس نيام، والريح تحرسني وتؤنسني بعزفها. خصلات من شعري تتدلى، يتلاعب بها هواء بارد ينعشني، ألا يا نسيم الريح اسبقني وبلِّغ له وجدي، فيا ما أشركت الليل بالنهار في انتظار ميعاد لقائه. لذيذ عذابك وهو يُنسيني عذابي...

ماذا لو التقى بي أحدٌ من ساكنة المدينة وعرف أنني الحاكمة؟ لقاء أرملة أمّ لبنت مع شاب مثير للكلام ومثير للشبهات.

بشاطئ البحر التقينا. هدوء البحر موسيقى، ومدّه يمحو أثر سنابك الخيل ويرشّنا برائحته التي تخوي نفسي ممّا يعتلج بها.

أرتبك وكأنني ألتقي لأول مرة برجل. يخطف بصري منه ما ترسمه ظلال القمر. أمسح الظلال وأغور في قسماته، أرسم حروفه وأنقش ما تخفي الظلمة تدقيقاته. قال لي في تلعثم أنّ مخرج الحروف يخونه.

قلت له في ودٍّ حنون وغنج ما عرفت كيف انتَشَر مني:

- انسَ أنني الحاكمة.

لكنه هيبة مني أو خجلاً أو . . . ما تشجَّع.

لم أعلم أنّ اللقاء به سيكون له كل هذا الطعم. الحب من الوجوه الجميلة المخفية في الدنيا. كنت قد أحببت زوجي، بيْدَ أنّ حب خَيْرُونْ ينفثه شيطان. شيطان مارد جبار يأكل من قلبي وأنا أنتشي.

خلوة مشيتك ونحن نتسلّل إلى البحر. مشية طائر حجل. تمشي، تتلخبط خطواتك، تودّ الوقوف. . . الاحتكاك بي. . . ملامستي. . . تسبقني ثم تعود لتقترب. . . تتقدّم في خجل لتلامس أصابعي، لتقبض على يدي. طائر حجل يتمختر قرب أنثاه. حلوة هي خطوات طائرين نحو البحر. . . رهبة، ورغبة، ونوبة من الحرية.

* * *

الحب لا يخفى. والناس تلوك المحبين بالألسن حسداً أو غيرة أو حلماً بأن يعشقوا مثلهم. الفقيه الهبْطي تتبَّع أخباري، خاطبني بغضب مغلَّف بموعظة:

– العشق ابن من أبناء الضلال . . . وباب من أبواب الحرام.

قلت له دون أن أتكلم:

– سيدي هل يفرِّق العشق بين الحلال والحرام، أليس هو ابن ضال؟ العشق كافر ظريف وكلّ تراتيلي من الإيمان لم تقدِر أن تروِّضه.

سيدي، جسدي وروحي مسحوران به كأنهما مرصودان له

منذ خلق الزمان. لا أستطيع أن أكون الطاهرة العفيفة وعشقه يعتو عليّ كقضاءٍ مُلزمة بقضائه. إنني أمرٌّ بين لهيب النيران، فكيف لا أحترق... نيران طريقه، وأنا مُلزَمة بقطعها. نار حمراء تقدح، لكن ما من نار تحمل جمالاً مثل هذه النار، وما من لهيب أتمنى أن يشوطني سوى مثل هذا اللهيب. لهيب يؤجِّج ناري الغافية ويشعل ظلامي ألواناً.

هوى خَيْرُونْ كان فخاً. أفكِّر أن أحبس نفسي عنه فتبني لي نفسي سجناً من رائحته تستبدّ بي وترغبني فيه. جسدي ينادي، ولا طاقة لي أن أتجاهل نداءاته وأسحقها، وهو يسحق صبري بإلحاحه. لقد صار من أجله يؤرقني، ولا سبيل للرحيل عنه أو تغييره بآخر جديد يكون مثوى للعفة والتقوى. رغبتي تتأجج وتخور.

مبنى القصبة في شفشاون كان يطلّ على زرائب للبقر، وما إنْ يحلّ الربيع حتى تتدفق روائح رغبات العجلات المنادية في غواية على الفحول. وحين تخور بقرة منادية على فحل، فإنّ راعيها يبادر بأخذها إلى مضجع الفحل. لو تأخَّر عليها تطلق خواراً حزيناً، تتبعه بخوار باكٍ، ثم بخوارٍ لاعن تقتلع بعده أوتادها وتهرع إلى أقرب عجل. والنساء هنّ أشدّ إحساساً بروائح رغبتها، ما إن تطلق أولى نسماتها حتى يسرعن في تقريبها من ثور.

مَنانَة التي فقدت زوجها شهيداً في موقعة بحرية كانت تؤكِّد لنا ونحن صبايا:

- لا دواء لحال العجلة الضاجّة رائحتها سوى فحل.

ترسم على وجهها جدية أكثر وتخاطبنا:

- كل النساء كالعجلات وكلهن في حاجة إلى فحل.

كان لمَنانَة بقرة هزيلة بلغت أيام ربيعها، فخافت عليها من أن يركبها فحل لأنها لن تتحمل قوته، وحتى تخفف من لوعتها أحضرت روث ثور وبوله ومسَّدت بهما بين فخذي البقرة، ورشت الباقي بين قوائمها على مرقدها. هدَّأت الرائحة من غليان العجلة لكنها عادت بعد يومين تضرب وتخور بشدة. شدة لم يهدئها سوى حضور عجل.

أنا خواري صار أنيناً يعذّبني ويدفعني لأتساءل، لم لا يكون خَيْرُونْ فحلي يُسكتني ويغرس في دمي، ما يجعلني أشدو بخوار من الانشراح.

لُورَا ابنة خالتي المَسِيحية من طليطلة قالت لي يوم زيارتها الأخيرة لي بمدينة تطوان:

- من لم يتذوّق طعم حبٍّ محرَّم لم يذُق عذوبة تفاحة العشق. مذاق به مرارة شهية تطوح به من النار إلى الجنة.

كلام بنت مغناج، أم أنها مجرِّبة تذوّقت متعاً تعربد رغباتها في دمنا ولا نفصح عنها. أضافت وهي تبتسم وتحكي لي عن لقائها بحبيبها المسلم:

- الرغبة لا تستأذن، لا تطرق الأبواب، إنها تفاجئ، إنْ أغلقت بابها أتتكَ من النافذة.

تابعت غاضبة أنّ أهلها منعوها من الزواج بحبيبها، وأنهما في انتظار ليلة مناسبة للهروب مع الغجر، قبل أن تضيف:

- وحدهم الغجر يعرفون كيف يذكّون نيران العشق والفرح من رماد الأتراح.

رغبتي في خَيْرُون تعربد، تأتيني من شقوق الأبواب ومن فتحات النوافذ ومما أتنفسه من هواء. إنها كالريح بين ثناياي. صعب عليّ أن أصدّها عني وأفرّج عن نفسي منها.

* * *

وصل الوسيط ذِي كُوبْيَارْ إلى مدينة تطوان يحمل رسالة من القائد الغْرُوسِي الأسير لدى البرتغاليين في مدينة لشبونة. تحمل الرسالة أخباراً سيئة عن حالة القائد، جرحه تعفّن وآلامه مبرحة، وصحته تتدهور منذ أن قبض عليه وتمّ ترحيله إلى لشبونة، وآسروه يرفضون أن يقدِّموا له العلاج.

الفكاك ذِي كُوبْيَارْ أخبرنا أنّ البرتغاليين يشترطون لإطلاق سراح القائد، افتداءه بأحد النبلاء مع عدد من الجنود كنا قد أسرناهم بباب سبتة، وأنّ عملية التبادل يجب أن تتمّ في مدينة لشبونة.

كُلّفَ القائد خَيْرُونْ للقيام بمهمة تبادل الأسرى. كلّ مراكبنا كانت قد خرجت للجهاد، ولقد وجدت في إبحار خَيْرُونْ بمركبه فرصة ليعرِّج بي على جزيرة بادس، لأتفقد تجهيزاتنا الدفاعية وأوضاع رجالنا هناك، بعد مرور أشهر قليلة على تحريرها. ربما

أكون قد تعمَّدت مرافقة خَيْرُونْ لأشعر أنني قريبة منه ولو لبعض الوقت.

على ظهر المركب، كنت قلقة، تعذِّبني حالة القائد الغَرُوسِي حين أتخيَّل ما هو فيه من معاناة. لذتُ ممّا أنا فيه بتأمُّل المياه المظلَّلة بألوان الغسق. اقترب مني خَيْرُونْ، جرَّني إلى لذة التأمل في محياه. سحنة مهمومة وابتسامة ذابلة تفصح أنه متعب. ملامحه حمالة لبقايا عواصف ومخلفات أعاصير.

كان زوجي يقول لي إن أحلى وسادة للرجل حين يتعب، هي الاسترخاء على صدر امرأة. تذكّرته ساعة حب والمطر يحدّ من لهيب الأرض ولا يحدّ من لهيبنا، وهو يقول لي بعد أن مددت له وسادة ليرتاح:

- أحلى وسادة هي أنتِ، دعيني أتوسَّد تحنانك.

تمنيت لو أقول لخَيْرُونْ، تمدَّد وتوسدني. لكنني قلت له:

- ادخل العنبر، خذْ وسادة وتوكّأ فإنك تبدو تعباً.

هبَّت ريح مفاجئة لحظتها. بردٌ سماوي قرَّبني منه. أبحث عن دفء يتفتق من دفئه. مدّ يده نحوي، قرَّبني بلطف إليه يحتمي بي، كل الحواجز صارت سجادة نحوه. عقلي يقاوم وروحي مطيعة. كنت جسداً وروحاً لا يتفقان. اندفعنا إلى داخل العنبر.

جلستُ قبالته وعيناي تتوسلان عينيه:

- خَبِّئني من قسوة الأيام . . .

قال لي متلعثماً:

- أنت شجرة ريانة من ورد عَطِرٍ...

رفعت الخجل عني وفكَّرت أن أقول له:

- كُنْ لي فأساً من حرير، والقمني قبل أن تذبل أوراقي وتتهرأ أغصاني. إني لك، تقدّم وقطر عطري وأنبت ورداً في خلائي الموحش.

نزعتُ خوذتي، أفردت شعري، تخيَّلته يقول لي، تعالي حلّقي معي، وأنا أجيبه، شرط أن لا تدعني أتهاوى.

الحمامة تتهادى حولي، في رقصات غاوية، ترقص طرباً، تزغرد. شيطان هي مهيأة للأمر بالحب.

فاجأني حبي لك، وها هي الرغبة فيك تباغتني، بعدما عوّدتني أن لا تأتيني إلا بعد الاستعداد والاستئذان.

داخل العنبر لا أدري كيف اقْتَرَبْتُ منك. ولا كيف اقْتَرَبْتَ مني.

جسدي الذي تناسيته من قبل، تهزّه جعجعة رعد، واشتعال نور برقٍ باهر، ورقصات إعصار مجنون، فيلتجئ إلى الحلم بالانكماش لديك لتدثّره وتحميه من الخطب الذي يكاد يمحقه... رائحتك رائحة أرض يغازلها حلول الربيع، ويكسوها عطر أزهار ممزوج برائحة التراب. نسيمك العابر بين جوانحي أطلق العنان لحبي.

شفتاي قبل أن تتهيآ لترتجلا كلاماً في حبك، غمرهما ريقك

فارتجفتا تحت القبل الهوجاء. أستسلم لسحر ما خلقت فيّ من رعشة تفتك بي. أنفاسك، رضابك، ندف ثلج من حرير تُلَيِّنُ من وخز شوك شجر الصبار الذي اعتاد أن يسيِّج صدري. يدان قاسيتان من ذهب تشعلاني. فجِّر مكامن أغواري بهما، فجِّر واجعلني أنصهر منك ومعك. يداك تفكِّكان سدود شهوتي... هي أصابع من سعير توقد الحريق في ماء آباري وعيون جسدي. إنني مبعثرة ومتشظية، بعثرني وأعِدْ تشكيلي بأناملك.

مهلاً، لسانك لسان من نار... فسخت لجامي وأطلقت لي العنان... مهلاً، إنك تطلق مارداً من قمقم.

نشوة صادقة. وحده الليل عباءتي، كحواء يوم الخلق. نتقلب من عناق إلى عناق. نار حمراء تقدح. نيران تجيب نيراني. حرارتك كالشمس تنفذ حتى العظام... هو لهبك يؤجِّج جحيم لذتي. نعيم أشهى من الشهوة وألذّ من اللذة. سكرانة وما أنا بسكيرة، كأنني فتاة لم تتذوق رجلاً من قبلك.

خَيْزُرونْ يُخرج زفيراً متقطّعاً، يحتضر لذة. حوضي يحتمي بحوضه. خفِّف وطأ درج جسدي فإنك مهما أوغلت لن تصل إلا إلى قلبي.

قربكَ أنا عينُ ماء جارية تأتيني الجداول من كلّ اتجاهاتك ولا أمتلئ. ولاعة ولعتني، فأمطرني بماء يطفئ لظى حرائقي، وعوِّمني في فيض شهوة من فيضك.

كنا نسعد داخل جسدينا. . . كانت اللحظة ممتعة قصيرة كالحياة حين تكون سعيدة. . . . أهمس إلى الحمامة:

- لمَ ليست الحياة قبلات وضمّ، ومَن الملعون الذي خطّ فيها شريعة ونار الحرب حتى ظلّت متأججة دون انطفاء؟ ماذا ستخسر الدنيا إن تعانقنا؟

* * *

نامت أمواجي. طفح على نفسي سرور مطعَّم بما ينكِّد علي، بقدر ما أَسَرَّني أبكاني.

تنوح الورقاء.

أيتها الحمامة الماجنة. . . أيتها الأفعى. . . أغويتني بالتحليق ثم رميتِ بي في بحرٍ من الندم، وها أنت تعاتبينني وتحاسبينني.

ندمت. . ندمٌ كاسح. عماي مكَّنك مني يا خَيْرُونْ. أمامك نكَّستُ رايتي وأعلنتُ الإذعان، رغم أنني كنت أعرف منذ البداية أنه لا يمكنني أن أحافظ على براءتي، أثمن ما أملك، قربك.

غريبة هي الحياة، تشحنُنا بالرغبات ثم تطلب منا أن نظلّ محافظين على براءتنا.

عن أيّ روق أحكي وألمٌ من بَعْدِ متعتي يحاصرني. . . عيناي يغسلهما ورع ماكر وتقوى خادعة. . . جرحك رَحْبٌ يا خَيْرُونْ في قربك وبعدك.

طمأنينة حذرة رمَت بي إلى الغوص فيك بحثاً عن طمأنينة كاملة، فما كنتَ لي سكينة حين تَشَبّعْتُ من سفري بين أحضانك ولملمتُ ثيابي. أخاف منك أن تكون كباقي الرجال، لا تراني سوى حواء الساقطة العارية، حمّالة خطيئة البشر وسليلة الأنثى الأولى التي أشاعت الشرّ.

طيلة حياتي وأنا أحلم بأن ترتقي بي أفعالي إلى النعيم الرباني، لكنني قطفت التفاحة وتذوقتُ حلاوتها، وإنني في انتظار اللعنة بعدما تلاشيت مهدودة جنبَ جسد رجل. تمرّ من تحت إبطي ريحٌ تنثر عرقاً بارداً يغثيني.

هزمتني شجاعتي. لا تقل لي يا خَيْرُونْ إنّ الشجاعة خطيئة حواء وأن الجسد معقل للمعاصي وبيت للرذائل والآثام. إنْ كان كذلك، فأنت الشيطان، شيطان وَعَظَني وأغواني، وعبَرَ بي من نارٍ إلى نار.

لستُ سوى جُحرٍ للمخازي والخطايا. لا سبيل لديّ كي أنزّه نفسي ممّا يمحقها من نهم شهواتها، وأجعل منها محراباً مقدساً تصل فيه الروح إلى السماء وهي مأخوذة بنشوة الإيمان، نشوة غير نشوتك يا رجل.

أخاف على نفسي منك.

تنبّهني الحمامة:

- ألم يعلن لك الرجل من قبل عن رغبته في أن يتقدّم لخطبتك لدى أخيك، وأن الخروج المفاجئ إلى افتداء القائد

الأسير أجَّل الأمر؟ لا تسحقي النفس باللوم أكثر ممّا تتحمل، فما الإنسان سوى مخلوق ضعيف.

ما وقع قد وقع، وما فعلته قد فعلته، وها أنا أحمل همّي كما يحمل مؤمنو النصارى، وهم حفاة، تمثالاً من خشب صقيل للنبي عيسى، فوق أشواك.

إنني مشدودة بخطيئتي إلى صليب من ندم ما يفكّني منه سوى زواجي منك. . . نعم لن يكفّر عن ذنبي سوى زواجي منك.

كفانا حروباً مع النفس، لنُعيد إحياء هذه الاحتراقات والبال هانئ والروح راضية. تعالَ نتزوج ونمتزج، نغرس جبال القصبة وقلبينا حبقاً وأقحواناً.

بقامته الطويلة وقف أمامي، في خجل اقترب مني نزل على ركبتيه، لثَمَ يدي وخاطبني:

- أكرِّر طلبي سيدتي، أتقبلين بي زوجاً مدى ما تبقَّى لنا من عمر؟ لنُعلن زواجنا بعد عودتنا.

عذبٌ عذابك، كلماتك طهَّرتني ممّا يعذبني. انتعلت الفرح وعلوت السحاب. أعتصر الكلمات لأجيب، كنت أرغب في أن أمضغها وأمتصّها وأذيقك رحيقها بين شفتيك، حين تراءت لي الحمامة تحلّق فوق البحر تشدو وتزغرد.

لم يعُد يخيفني لا نذير البحر، ولا هدير زئير الأمواج، ولا هول الرعب من صوت المدافع قربك. حضورك رعد وورد، رعدٌ يزلزلني وَورد يعطّرني.

الدنيا فجر من ضباب نديّ. كعروس في صباح ليلة دُخْلَتِهَا كنت أتشمَّم بابتهاج طلائع الفجر. ما زالت ريوق القبل تعطِّر فمي حين هزَّتنا ضربة مدفع، وارتفع صراخ بحار منبِّهاً إلى سفينة إسبانية ضخمة انبعثت مع الفجر من قلب البحر. اخترقت السفينة العملاقة رمادية البحر وتجلَّت أمام أعيننا ككابوس. نفير الموت يعلو كفقاعات، ما تنطفئ إحداها حتى تتولد أخريات. شياطين الردى لا تتحمل رؤية حبيبين يتحابان.

انفجرت كرة نار غير بعيد عن المركب فزعزعتنا وكستنا بشلال من الماء. وثب خيرون صارخاً على البحارة بالهروب.

الهروب يلخبط الأشياء. صلابتي اختلَّت حين اهتز المركب مرة أخرى. هزة رمتنا بين جوانحه ومزقت أحد الأشرعة. وجدتُ نفسي ملقاة بين شظايا أخشاب. جرحت يدي اليسرى. نزلت إلى عنابر التجديف أحثّ وأصرخ، وأشارك البحارة التجديف رغم جرح يدي. أُلْهِبَتْ سرعة المركب. الأسرى الذين كنا سنبادلهم يصرخون في العنبر المجاور ويتضرعون إلى الله.

ساعتها يا خَيْرُونْ تذكَّرت حبك، فحاصرني خوف بهيم من أن تقتلنا الحرب، وأنا لم أرتوِ بعد من غليله ومن عطشك. البحارة يلهبون سطح البحر بالمجاديف في اتجاه مسار الريح والأشرعة التي بقيت سليمة ساعدتنا. استطعنا الانفلات من كماشة مدافعهم والكور تلاحقنا. صرتُ أرى كرات النار تسقط بعيداً عن مركبنا.

من جديد تشتت صوت انفجار قذيفة فوق رأسي، تمزق

الماء وجزء من حافة المركب تناثرت ألواحه. أصلي، أدعو الله، الدعاء صلاة. نجدف... نقرأ اللطيف... نجدف... ونشجع بعضنا.

دوي آخر على ظهر المركب. طلبتُ مواصلة التجديف. هيأتُ سلاحي وقفزتُ إلى سطح المركب. دخان كثيف ورائحة نار وبارود وهلع مسيطر... سيطرتُ على دفة القيادة، وأدرتها للانزياح مع الريح.

يشملكَ الخوف وأنت ترغب في الانفلات من قبضة قاتلك ولا تستطيع، ثم يتساوى الخوف والشجاعة. ها أنا أؤدي يا ربي صلاة الخوف لعلَّها تكون أعظم تثبيت وأجلّ سكينة، أفوِّض أمري إليك وأجهش بالدعاء.

ابتعدنا. عُدنا نسمع دويّ ارتطام قذائف المدافع على الماء. رغبت في أن أنادي على خَيْرُونْ بين البحارة المذعورين فخانني صوتي.

من بين الدخان يصدمني هول ما أرى. عيناي تجمَّدتا تتابعان سريان الدم ومزق الأجساد...

تصرّ الفاجعة أن تفجعنا من جديد. والموت هو أكبر الفواجع، والموت بجسد مشوّه هو أشدّ الفواجع فجعاً...

تقدَّم نحوي الشيخ اسْمَاعيل يمسح الدم والدخان عن جبهته وهو ينعي الشهداء بقول أليم، قبل أن يقصفني بصوته:

- استشهد خَيْرُونْ.

ارتمت عليَّ صعقة. قصف الكلمات كم هو كذلك مروع. دائماً لا نصدِّق الخبر الفاجعة أوّل مرة ونطلب تأكيد ما سمعناه. ليتني أكون توهَّمت اسم مَن سمعت. وأنا أداري حتى لا يُفتضح ما في خاطري طلبتُ إعادة ذكر أسماء الشهداء.

مددتُ يدي إلى رأسي، نزعتُ الخوذة والمنديل، وما كنت أرغب إلّا في نزع رأسي وما بداخله، ليسكت عني الهدير ورغبة إدراك ما لا أودّ إدراكه.

في ذعر غريب ككابوس يقبض على روحي بمخالبه، صرتُ أبحث عمَّن سمعتُ خبر نعيه.

لم يعد لي من رغبة سوى أن أتبول واقفة على البحر، وأشتم بأقسى البذاءات. تبولت واقفة، اضطراباً، رغبة، قلقاً، لست أدري.

عاد اسْمَاعِيل ليقول لي:

- لولا تفوّقهم في الماعون الحربي لكنّا مزقناهم.

يوم حملت ثقل الحكم جمعتُ رجال المدينة والقبائل وقلت لهم:

- أسيادي، إنْ كنتم ترغبون في مواجهة أعدائكم هلموا للعلوم... علوم النار والبحر والبارود، فالأعداء يملكون ماعوناً متطوراً، إما أن نتبع طريقهم وإما أن نكون أبد الدهر من الخاسرين.

أتفقد مَن احترق من الرجال ولا أهتمّ لرعد قلبي الذي

يتفرقع. أعاين الدمار. وجهٌ مشوط وعينان مفتوحتان جاحظتان مرعبتان للمجاهد مَشِيشْ... غير بعيد بقايا جثة معجونة بالدم والسواد. كتلة من دماء محروقة، وأشلاء لحم معجونة مع بعضها ومع قطع من الخشب.

مُصْطَفَى ممدداً قلب دمائه قال لي:

- لا ترجعوا بي إلى الأرض، لا أودّ أن يراني مَن بقي من أبنائي وزوجتي على هذه الحالة. ارموني في البحر، ودعوهم يتذكرونني على صورتي التي غادرتُ بها تطوان.

مَاَشَانْ وهو يئنّ ويقبض على جنبه الممزّق، ويحاول لمَّ مصارينه المتدلية من بطنه، نطق بصوت ممزَّق خافت:

- لا ترموني في البحر. اجمعوا ما تناثر مني وضعوه معي في قبرٍ من تراب. البحر يأكل صاحبه. لو تعفَّنت جثتي قبل وصولنا إلى الأرض صبوا عليها الخل والكافور حتى تصلوا إلى البر. الأرض مقام الروح.

تلوى ألماً، نادى بحرقة على أسماء أبنائه الصغار قبل أن تخمد أنفاسه.

البحارة يجمعون الجثث المحروقة. ذراعٌ ما زالت تنبض عروقها وهي مقطوعة من جسدها. أي صبر عليّ. مجاهد يذرف دموعاً. بحَّار مُجهَد، يلوح لي بقطعة لحم مدماة. مدَّ لي ساقاً مقطوعة وهو يحني رأسه أمامي ويحبس دمعه، يترحَّم على الشهداء ويرميني بقوله:

- هذا ما تبقى من خَيْزُونْ الذي احترق.

وماذا تبقى مني أنا؟

تأكَّدت من بقايا ساق الرجل. قطعة ثوب من سرواله، وقطعة جلد من نعله ملتصقتان بالرِّجل المهشَّمة.

لم يسعفني غثياني في أن أفقد وعيي، نطقت:

- ليرحم الله الشهداء...

عليَّ أن أتظاهر بالجَلَد، هذا قدر القائد وإلا فقدْتُ هيبتي.

مدفونة ومكبلة في الصمتِ الجارح، حاولتُ أن أزيح عنّي ما يطمرني لحداً لحداً وأصرخ. أصواتٌ بكماء تملأ فمي، تبكمني. وحده السقوط لم يدعني أصرخ. هويتُ كيمامة جريحة أتتها دوخة في السماء ومانعت وقاومت قبل أن تسقط.

التفّ حولي بعض رجالي. هاتفٌ بداخلي يستعجلني الوقوف رغم كَمٍّ هذا الانهيار. أنتعل غشاء قلبي وأقف. لا قيمة للعساكر دون قائد يتمتع بالشجاعة والصبر والانضباط. كمن يتوكأ على إبرة في عينيه عاودتُ النهوض. وقفت كمَن يحمل ناراً بين جوانحه، ولا شيء يُخمدها سوى أضلعه. أنا عصفورة النار، كلما حلّقت ورفرفت أجنحتي إلا وأجّجت الرياح احتراقي. السماء في صممٍ مكسوة بغيوم، كأنها تمنعني من أن أهرع إليها أتسول لجوءاً. أعدتُ بناء وترتيب كلمات من بين حطامي وأمرتُ بالإسراع بالعودة.

يحضر طبيب المركب مناشيره وسكاكينه. رجال شدّوا وثاق

بِنْعُمَرْ وهو يتعرَّق من شدة الألم. قال الطبيب والعرق يتصبب من جبهته:

- الألم الآن رحمة، هو إنذار عن وجع سيكون مريعاً إذا لم نقُم بقطع الساق بسرعة، ستتعفن وسيُعاني صاحبها أفظع الآلام التي لن تسلمه إلى الموت، إلا بعد أن تكون قد أذاقته عذاباً لا يعلم شدَّته إلا الذي يتعذب والله.

الجريح نادى عليّ وأوصاني:

- سيدتي لا تدفنوني بعيداً عن البحر.

بُترت ساق الرجل من الفخذ ويده اليمنى. من شدة الألم لم ينفعه العضّ على قطعة خشب من شجر الرَّنْد. لا يستفيق من الغيبوبة إلا ليصرخ ألماً ثم يعود إليها. طلبتُ من الطبيب أن يسقيه مهدئاً أقوى. اعترض خوفاً من أنَّ جرعة كبيرة قد تكون قاتلة. ظللتُ صامتة قبل أن يخبرني الطبيب أنّ الرجل غادرته أنفاسه ودخل في صمته الأخير، ثم أضاف في استسلام:

- لقد ارتاح من الألم ورحل إلى الراحة الأبدية.

استطعنا الانفلات بمركبنا المهشّم الأضلع. كان علينا الابتعاد واللَّف وسط البحر واتخاذ طريق نهرب منه وننفلت عبره من الموت.

نتوغل في عباب البحر ونسرع. البحارة رغم جراح بعضهم يصلحون ما تهشم من المركب. كان أبي يردِّد:

- الموت مقدَّس والعمل من أجل الحياة أقدس.

* * *

كأنها القيامة، أتنخَّم تراب ودخان حرائقي. تواجهنا الدنيا بجبروتها ونحن لا نملك رداً، تختلف طرقها في إذلالنا، ويبقى ذلّها هو ما يحكمنا أمام نفاذ القضاء وحتمية المقدّر.

كأن إيماني يتخلَّله هبوط وصعود، أنا لا أجحد القضاء والقدر حتى أسأل ردّ المقادير ولكن أسأل الله اللطف بما نزل عليّ به قدري.

يطلّ المغيب. رائحة الاحتراق تحرق سكوني لتفوح منه ريحة جنوني. الدنيا بلا ألوان، رفعت عيني، بحر دون لون، سماء دون لون، وغَمِّي بكل الألوان، ولون من الجنون يواتينا حين لا نملك قوة صدّ لقدر أعتى من قدرة تحمُّلنا. الرجال يجمعون ما تناثر من الأشلاء ويغسلون الدماء، تتخالط أشلاء الشهداء.

مأساة أن لا تستطيع جمع أشلاء حبيب، لإعادة تكوين جثته المتناثرة قبل دفنه. وجعٌ يفتك بدماغي. تناثر عقلي ليلمّ صورة أخيرة لخَيْرُونْ ويُعيد تكوينها ليحتفظ بها، تخلخل ولم يستطع جمع أي صورة له.

غيوم تحجب الضوء وتظلم البحر. وحده خيط رفيع من نور باهت ظلّ صامداً يشقّ مساره في السماء. طيف الحمامة يبزغ.

أيتها الداعرة، كم جَنَحَت بي أخيلتي وحبَّبت إليّ مسارك،

وكم حلمت بك مخلصة فأتيتني هلاكاً بفحيح تنين وبأسنان منقار استعرتها من فكّي غول. أتيتني غرنوقاً أسود داعراً تتفرج عليّ وتنعق بالموت والهوان. ملعونة أنت، كلما اقتربت منك إلا وتردني بضربة من جناحيك تذكّرني بضعفي وقلة حيلتي.

لمَ أنتِ صامتة صمت حجر الجبال، أيتها المسكونة بملامح عفريت مكتئب عازم على الأخذ بالثأر من بني البشر؟

لا رد سوى نظرات شاردة. انتفضتُ وصرختُ:

- لو قبضتُ عليكِ، سأسجنك في قفص، سأجَوِّعك وأمنع عنك الماء والهواء وسأحاسبك على طول غيابك عنا.

لا جواب. أستشيط غضباً، أجنّ. وجّهت نحوها بندقيتي، رغبتُ في أن أرميها بالبارود. هزئتُ من نفسي، كنتُ كمَن يرغب في أن يصيب نجماً بسهمٍ. مددتُ رجلي وجلست.

* * *

طلع الصباح وأنا مكوَّمة في شرودي. أتوه، يرتفع بي عقلي حتى أصبح بين الأرض والغيم. أخبرني الرَّيِّسْ احْمَايْدة أننا انحرفنا عن مسارنا بمئات من العقد البحرية، وأننا سنتأخر في العودة، هذا إذا لم نلتقِ بمراكب أخرى للأعداء.

تقدَّم الطبيب نحوي بملابس اسودّت من الدم والدخان وهو يحذِّرني:

- نحن بعيدون عن اليابسة، والشمس عادت لتصبح هجيراً،

وإنْ وصلنا وقد يطول ذلك، ستكون الجثث قد تعفّنت ممّا سيؤذي مَن تبقى منّا حياً، لنرمِ بها في البحر.

حاولت منعه. أصرَّ على إلقائها في البحر. قلت له دَفْنُ ما تبقى من أجساد الشهداء في الأرض سيَدَع مزاراً لأهلهم. عارَضني.

كأنّ عاصفة عملت على اجتثاث ما تبقى لي من عقل. يسكننا الشيطان ويتمكّن منا لحظة ضعفنا. أن أرمي بالساق المقطوعة إلى البحر هو الرمي بما تبقى لي من حبٌ للحياة، في لحظة كراهيتي الجارفة لها تعلّقت بما فضل لي من خَيْرُونْ، منعتهم من أخذ الساق.

اقترب مني الطبيب مرافقاً بسَانْشُو، محارب مسيحي أسلَمَ وحارب معنا جلّ المعارك ولم يتوقف عن مقارعة النبيذ، وفاجأني بقوله:

- سيدتي، لنرمِ بالجثث ولتحتفظي بالرجل المقطوعة لخَيْرُونْ ندفنها بعد الوصول الى أرضنا.

تدخل سَانْشُو:

- لنَضَعَها في برميل من الروم، هو برميل الشراب الذي أحضره معي لأوطد نفسي على الاستكانة وتحمُّل أهوال المعارك... ما زال نصفه ممتلئاً، ضعيها بداخله حيث تبقى محفوظة حتى نصل الأرض.

رغبة في أن أحتفظ بشيء من خَيْرُونْ، بقطعة منه، برائحة

منه ولو كانت نتنة، رغبة في أن أترك منه ما يدعمني فيما تبقى لي من أيام عمري، وافقتُ على اقتراح سَانْشُو. رغبتُ بأن أحتفظ بساقٍ مهشّمة ومقطوعة لرجل أحببته وفارقته ليلة إعلان زواجنا، وكنت أحلم به أن يقف بجانبي ليسندني. صرت أستند إلى وتدٍ يربطني بالعيش هو ساق مقطوعة.

أقمْنا صلاة الجنازة. قذفنا ما تبقى من جثث الشهداء في البحر، ألقينا بها في ظلمات الماء. يأتي الإنسان من ظلمة الأرحام وينتهي في ظلمة التراب، ورفاقي انتهوا في ظلمات تغمُرها المياه. ظلمة أكيد أنها تختلف عن الظلمة الأولى.

كان خالي يقول لي:

- الإنسان لا يستفيد ممّا يغمره من ضوء فترة حياته، يقضي زمنه في الاقتتال مستعجلاً العودة إلى الظلمة.

* * *

وقفت أطلّ من حاشية المركب. البحر يلاعب أمواجه ويرفس زبده. السماء في هدأتها تتفرج عليه. هو البشر من يلوِّث نظراتهما وكأننا لا نحيا باطلاً وإنما لنعكِّر صفوهما.

رذاذ مطر. إحساسٌ ببرد ساكن وجامد ومسموم. كمْ رجوت أن أتطهَّر من آلامي بماء السماء، فما غُسِلَتْ قروحي إلا بماء من ملح وما طُهِّرت إلا بالآلام.

مِذَراة من أسى تذرو صبري. كيف يمكنني أن أحيا متخفية من أهوال الحياة؟ أملي بها يكادُ أن يتحطَّم ممّا رسخ لديّ من

ألم. . . أيها الموت اسكب لي من كأس طمأنينتك وأبعد عني خطر الحياة.

كنت أتمنى أن أتخفى حتى لا يعثر عليّ الموت، الآنِ أودّ أن أتنكر حتى لا تتعرف عليّ الحياة وتعثر عليّ. انسقتُ إلى خطٍّ زمني مرغمة على السير في طريقه حسب رغباته، ليته يتعرج، يتيه، فيتيهني وينساني بين منعرجاته.

كم تعبتُ من نفسي.

ما خفتُ يوماً منْ أن أقف على حافة المراكب. أيام التداريب على الحرب في البحر كنا نقف وأيدينا مشرَعَة لنتعلم الحفاظ على توازننا. اليوم لم أخَف من أن أنزلق من على المركب، بل من أن أرمي بنفسي. . .

الشجاعة تقتضي أنْ يختار الإنسان موته. نَزِلَتْ على روحي صاعقة خوف من أن أكون شجاعة وأقذف بنفسي إلى البحر.

أيا الموت، أتظنّ أنك وحدك مَن يزرع فينا الخوف؟ لا، فالحياة قبلك نافستك ومنعتك من أن تتمتع لوحدك بهذا. لن تكون وحدك المالك لسطوة ترهيبنا، فهي كذلك تشاركك تخويفنا. فلتنكسف ولتمُت في غبنك. . . فزُعبنا كما يأتينا من الموت يأتينا من الحياة وها أنا الآن إليك أرتمي.

صوت آتٍ من قلب الماء يرغبني في أن أقذف بنفسي. تسمَّرت لا أنا راغبة في الابتعاد من حافة المركب، ولا أنا راغبة في رجم نفسي. العرق يتصبَّب مني وأصواتٌ تتعارك

وتعركني، أصوات تصرخ عليّ باغتسال نهائي من الأدران والالتحاق بأشلاء خَيْرُونْ وبباقي الشهداء، ونداء ينبِّهني إلى التشبث ومقاومة نفسي المنهارة.

قريني يشجِّعني:

- هو البحر جنة للراغب في التخفّي. دعي نفسك تسمو، تعلو لترتمي من على المركب وتنزل إلى مهاوي البحر العميقة، ستحتضنك وتطفئ مياهها لوعتك وترمي بك في برودة الغياهب. ظلمات البرودة أحنّ من لظى ما يحيط بك من أنوار الدنيا.

همسٌ شيطاني كان حديث نفسي. أديم الموج يرسم صورتك يا خَيْرُونْ، أقترب أكثر من حافة المركب، تناديني، كالثملة يحبِّبني صخب البحر الى الارتماء بين أحضانك.

كان خالي يقول لي في غمرة يأسه:

- لا يدعونا إليه بإلحاح وإصرار إلّا مَن يحبّنا حباً جماً، علينا أن لا نهرب ممّن يحبّنا ويدعونا بلهفة وشغف للّقاء به، مَن يحبنا حباً معتّقاً لا يستطيع منه فراقاً جدير بالاحترام.

حضرتني ساعتها كلماته:

- من يعاتب الدنيا على حرمانه من الحب ليجعل حبّ الموت له بديلاً. المحروم من المحبة في الدنيا له العوض في الموت. أنا حين أفكر في الموت أتخيلها امرأة فاتنة تهيم بي وتدعوني إليها، فلمَ سأخاف من انتظارها؟ إنني أمرح في الدنيا كطفل صغير في انتظار أمّ تحضنه، لكن لي على الموت مناجاة،

حين تأخذ أحبابك لا تأخذهم بألمٍ. رفقاً بهم، خذْهم وهُم في حالة من الانتشاء حتى يقبلون عليكَ مستبشرين.

رغم أنّ شهوة البقاء على قيد الحياة ضمرت عندي، إلا أنني لستُ راغبة في أن أقذف نفسي... لكنها ها هي ترغمني.

أصرخ. أستغيث، وأتشبَّث بحافة المركب. تحلَّق حولي البحارة بين الذهول والفزع يسألون ما ألمَّ بي. انتفضتُ ممّا بي رفعتُ عيني إلى الطير وهتفت:

- لن ألبي نداءك يا غراباً عرَفَت الدنيا جُبْنك فكَسَتْك بسوادها، لن ألبي نداءك أيها الموت، إني مستميتة على الحياة.

سفينتنا تواصل الهروب. عادت سحبٌ تعربد في السماء... ماج البحر. عقلي يركب أمواجه.

الشيطان لا يفارق الإنسان، هو قرينه، والجنون هو صنو العقل وبينهما خطوة واحدة فقط، شعرة صراط. وبيني وبين تصديق موت خَيْرُونْ مسار من الذهول والحيرة وعدم التصديق.

مخطوفة البصر، أحملق في الساق المقطوعة. طار عقلي مني، رحل بي حتى أصبحتُ بين الأرض والغيم. غدوتُ عملاقة من ريح، أنطح السماء، أشتت الغمام، أمشي على الماء، أرفس الأمواج، أنتعل موج البحر وغشاء قلبي وأمشي.

أسري وأجرّ خلفي بضفائر سميكة المَركب وأشرعته وبحارته. أجرّ تطوان وشفشاون والأرض والجبال والبحار

وأرواح الشهداء وروحي، وأعرج إلى قبة السماء. أسحب بضفائر جنوني البحر والسماء والأرض كالعملاق «عِنَاقْ بْنُ عِوَجْ»، تمزّقني الريح والنار وأنا أسحب، أسحب بين أعاصير من مطر ورعد وبارود ونار، يتبعني كل الأهالي وأنا أغوص في بحر من وحل وأصرخ غير دارية لمن أودّ إنقاذه، ألنفسي أم لمن يتعبني جرّه خلفي.

حطّ عقلي من طيرانه فعدتُ خائفة، خائفة من البحر، ومن السماء، ومن العتمة والوميض... والضجيج... والصمت... ومن نفسي. أبحث عمّا يدثّرني. لم أجد سوى كلمات وأدعية أتمتمها علّني أجدها ترياقاً من سمّ عتبة جنوني.

ربي إني ألوذُ بك من خوفي وضعفي أمام الحياة والموت والجنون وممّا يسكنني من خرائب شاسعة.

* * *

أمي كعادتها استقبلتني ليلة رجوعنا تلعن القتال. قالت لي إنها مريضة، وأن النوم هجرها وأنها لم تعد تتحمل كل هذه الحروب. كرّرت بامتعاض بيّن أننا لا نحارب سوى أبناء أخوالها وأبناء عمومتها. استأنفت بتوتر:

- بما أن هناك إلهاً واحداً للعالمين، فلِمَ هذه الاختلافات وهذا الاقتتال؟ كلّ واحد يَدَّعي أنه يقاتل في سبيله، يقتلنا انتماؤنا ونحن لا ندري. حين يقرّ الإنسان أنه لا ينتمي إلا إلى المخلوق الرباني خليفة الله في أرضه آنذاك سيكون إنساناً حراً،

وعندها سيشفى من أدران السيطرة على الآخر، وسيرتاح ويُريح.

ظللتُ جامدة، كلامها لخبطني، خفتُ الخوض في ثناياه. لو كان أبي ما زال حياً ما خاطبته هكذا. ماذا تودين قوله يا أمي. هم أبناء أخوالك وأبناء عمومتك يزحفون علينا ليدمّروا وينهبوا خيراتنا، وإنْ تخلينا نحن مَن يوقِف زحفهم؟

قرب مدفن زوجي المَنْظَرِي حفرت قبراً لصيقاً، دفنتُ الساق المقطوعة ووضعتُ عليها شاهداً، علامة تميِّز مكان دفنها. وجود قبر لساق خَيْرُونْ أفضل من غياب كلي.

فكرت:

- عيشنا جهنم لولا قبر يأوينا.

يتعسّر عليّ النوم، أتململ في الفراش، ضاق خاطري من شجونه فوزّعها على الجسد. تؤلمني كل أطرافي. قلَّت حركتي، ما عدتُ أجد نفسي سوى ملقاةٍ في إنهاك. الطبيب أخبرني بأنّ التعب الشديد سبب حالتي وأنه عليّ الاسترخاء. الدواء المرّ أشربه على مَضض.

يزورني الفقيه الهِبْطي واعظاً:

- قبول القضاء والقدر أعلى مقام في الإيمان.

أسأله:

- دلني على سبيل ذلك المقام؟

واصل وعظه دون أن يجيب عن سؤالي:

- من الضروري نسيان الموت لنحيا.

جاوبته:

- أيمكننا أن ننسى من يرافقنا متربصاً بنا في كل خطواتنا؟

يزيدني نصحاً:

- ما خلق الله الموت إلا ليكون للحياة معنى، وما خلق الله الحرب إلا ليكون للسلام معنى.

لم يُعِرْ اهتماماً لصمتي وواصل:

- الاستسلام المريع إلى حب الحياة إثم، حب الدنيا هو رأس كل خطيئة.

قالت لي وله نفسي:

- لا أستطيع إلا أن أحب الدنيا التي خُلقتُ مجبولة على حبها.

رفع من نبرة صوته:

- لم نأتِ إلى الدنيا لنكون سعداء... أتينا لنقوم بالواجب.

شرع الفقيه الهبطي يعيب عليّ زيارتي اليومية للقبرين، ونُواحي فوقهما، ثم أضاف بلكنة تحمل حنقاً:

- المرأة عجز. إنها ضعيفة يسلب لبّها الحب والرجل، ويزيحها عن المحجة السليمة.

أجبته وأنا أداري غضبي:

- المسالك السليمة تضيع حين تتوزّعنا المهالك.

تطلّع إليَّ آمراً:

- لا تصغي إلى صوت قلبك، كم يستهوي الشيطان أن يسكن القلوب العاجزة.

عاد ينبّهني بعنف:

- عودي إلى الله.

أجيبُ بصوت خفيض:

- متى كنت بعيدة عنه؟ الهمج القردة هم مَن أبعدوني عنه. تيّهوني، من يُعيد لي حكمتي وطريق إيماني...

تهديني نفسي:

- عَوّلِي على إيمانك.

يهمس لي شيطاني ساخراً:

- وعلى ساق مَن أحببتِ وواصلي سَيْرَك في الحياة.

نكاية بي يرفع الشيطان صوته هازئاً:

- كيف نعوّل على إرثٍ مهشّم؟

* * *

لا شيء يوقف نزيف غضبي ويفرج عني ممّا يأسرني من حقدٍ سوى الانتقام. إنه الوسيلة ليرتاح المنتقم من غلّ ما يغلّه.

سنوات من الحكم، لم نعتقل أسيراً إلا لكي نبادله بمَن أسر

من أهلنا. بالأسرى كنا نفدي أسرانا لدى الإفرنج، قايضتُ المئات وعفوت عن العشرات دون تعويض، رأفة، رحمة، أم لأنهم بشر فقط. والآن يُهَش عليّ بشواظ من غضب، ولن تأخذني رحمة بدموع أولئك السجناء، ولن أسمح للنوم لينسيني حنقي.

طلبتُ من رجالي:

- أحضروا مَن كنا سنبادلهم من الأسرى.

تنخرني سهام القصاص. العين بالعين والسن بالسن، وما تمزّق منّا بمزق هؤلاء الأسرى. ليتمزقوا ألماً فلن يعوّض ذلك آلامنا.

حلّقي أو تيهي أو حطّي أو ارحلي...

لن أرفع عيني إلى السماء لأنظر إليكِ أيتها الحمامة الحمقاء. الليل كفيلٌ بأن يسود بصري حتى لا أراك. سأصمّ أذني عن حفيفك وهسيسك وهديلك وتوسلك... الفأس وقع على الرأس، ولا مردّ سوى أن أرفع الفؤوس وأحطّم بها رؤوس هؤلاء بعد قطع سيقانهم، فقد أشفي غليلي وأرتاح.

لأدنس نظرك بالدماء كما دنّس أهلهم أيامنا بزوابع من المهالك... نوحي فما خلقتِ إلّا لتهدلي نواحاً.

اشحذوا سيفي، بيدي سأقتصّ وأقطف ما أشاء من لحمهم، وليطاول صراخهم أذنيكِ. تتحاشَيْن النظر، لا يهمّ ستتطاير حممُ الدم من مزق الأسرى لتطالكِ وتلوثَ عينيكِ، وساعتها سيخمد

صهيل دمي. . . لن يهمّني بعدها الحساب ولا الغفران، فهما يتساويان تحت سماء وعلى أرض تفترشها غياهب الحقد.

أيها العساكر أحضروهم في الظلام، لا تقدحوا المشاعل ولا تشعلوا نار القناديل والفوانيس، حتى لا أرى بحور الهلع على وجوههم وأخجل من نفسي.

لا ، سأظل مستيقظة منتظرة اكتساح النهار، لأريك أيتها اللعينة ما سبَّبه لنا صمتك وطول غيابك عنا. لن أدخل سيفي غمده حتى تتعالى بشائر الصباح لتتعالى الصرخات قاذفة معها الدماء إلى قبة رأسك.

هديل يطنّ في أذني يأمرني بأن أعفو عن الأسرى. لا يفارقني. يلاحقني خبط جناحيها، يضرب قلب رأسي. . . لن أستسلم لمراوغاتك. . . أنا في ساعة جدّ وأنت تلاعبيني، ملعونة مداعباتك أيتها الهائمة الهلوعة.

تزعجينني أيتها النواحة. نوحي لن أرحمك . . . لو لحقتُ بك لمزَّقتُ ريشك وعريتُ سوءتك وعرضتها لمخالب الريح.

يرتعش قلبي من يباسه. على رِسْلكَ أيها الانتقام الكاسر، تمهَّل، فإنك آتٍ، آتٍ وسوف يمضغ فمي كبد كلّ أسير.

ليتك أيها المؤذن لم تصعد اليوم إلى صومعة مسجد القصبة لتعلن أذان الفجر. اليوم كان عليّ أن لا أسمع الأذان.

أعداؤنا ألغوا الربّ من كل أيامهم، بلطوا قلوبهم بنسيانه وأتوا يسفحون دمنا، فماذا عليّ أنا إن غيّبت عقلي عن رحمة

الله يوماً واحداً! يوم واحد فقط. هذه سنة الانتقام. سأقتصّ ولنا في القصاص رحمة...

أنا لن أفعل إلا ما جبل عليه أسلافنا وأورثونا إياه.

أوقف التهاليل أيها المؤذن. إنها تجرح قلبي.

الأسرى يرتعدون أمامي، تقدَّم من بينهم شيخ ليقول لي:

- باسم الرب نتوسل إليك سيدتي أن تعفو عنا، ما عرفنا عنكِ سوى أنك طيبة، لكن للأسف فالحروب تأكل طيبة القلوب.

أصبح ولله الحمد، طلع الصباح ألواناً تهلّ على الدنيا، والأنوار دواء الروح من يباسها وعللها. في الليل أدمتني ذكرى موتانا فجرفَني نهر من الحقد إلى الانتقام، وفي النهار أغرقني بحر من الندم.

إشراق النهار محا إفك بطولتي، وعراني من الريش المهترئ فصار مكنون صدري أنيناً شجياً لطير حلوم، لَوَّنَ قلبي بالاخضرار وأوحى لي، ولو أن الكرب التهمني، أنني ما زلت قادرة على أن أدع الورد يبرعم في القلوب. هتفت:

- أبعدوا الأسرى من أمامي قبل أن يعود ذلك الوحش يتحرك داخلي، دعوهم في أمان وأرسلوهم مع رسول إلى لشبونة لنفتدي بهم القائد الغْرُوسِي.

صبري لم يعُد يسعفني في تحمُّل ألمي. لذت بِرَبِيعَة، مطربة من مطربات مدينة تطوان، قلت لها:

- أطربينا بغناء يُلهم القدرة على الفرح والنسيان.

الجسد مطيّة لم تعُد قادرة على حمل الروح. الجسد كأس، والروح بحر أمواجه جبال تتلاطم. يسيل عرقي ويدوخني رقصي. أرقص، أرقص حتى يسقط مني ضجري، يأسي، لحمي وعظمي.

كان خَيْرُونْ يقول لي:

- والدنيا تخنقك بقيودها، افردي شعرك وارقصي، فتتناثر شوائبها من على كتفيك ساقطة. وحده الرقص يطلق العنان لحريتنا ويمنحنا سلام الروح، إنه يلطف المواجع والفواجع...

كطائر مذبوح أتخبط رقصاً، أغادر أغلال الذهن وتعبَ الجسد وأخوض بحر الروح، وأتخبط، وأتخبط لعلّني أعبُر إلى شاطئ السكينة.

* * *

أهوال أهل الأندلس خلقت لدى بعضهم عادة الاحتفاظ بجثّة حمامة بيضاء عند فقدان قريب أو حبيب. حلَّ عدد منهم بين ديارنا حاملين معهم طيور حمام محنَّطة كذكرى لمن فقدوا من أهلهم.

أنا أطلقتُ حمامتين بيضاوين من على قبر زوجي ومرقد ساق خيْرُون. تتبعت تحليقهما في زرقة الفضاء، محلِّقة خلفهما آملة أن تتحرَّر نفسي من القيود التي شبكتها روح الرجلين حولي.

ظهر طيف طائري ليقول لي:

- يا رديفة الحمق. لا تهتكي هدأة روحك. لا تذكّي أتراحك. انسي. كلّ الأتراح إذا مرَّت ماتت.

رفعت صوتي نحوها:

- لا قلب لي ليسمع نصيحة مَن ترجَّينا حضورها لتعتقنا فتعنَّتت.

دون مراعاة لجوابي واجهتني:

- عجبي، تتمسكين بحضور الطائر المخلص ولا تهيئين له مطرحاً! تذكري وصية جدتك في لحظاتها الأخيرة، وهي تُحتضر وتنزع صحوها من بين هذيانها، لتوصيك بأنّ الطير المنتظر لا يريحه إلا سحر الحب والجمال.

تذكري نصيحتها المُلحَّة، بأنه لن يأتي إلا إذا هُيِئَ له الملقى، قلبٌ رحبٌ وجمال وألوان وطيب وفن وبحرٌ من حب الآخر.

تابعت الحمامة بصوت أليم ومرتفع:

- الشرّ تجذَّر في قلب الأرض، وليس بالمقدور نزعه ومحوه دفعة واحدة، لنُعِدّ للروح مطرحاً من الجمال يساعدها على مواجهته.

جمّلي مقام الروح وَزَيِّني مقامك ومقام أهلك بما يحبِّبكم في الحياة، حتى لا يصبح العيش بين براثن الحرب شبيهاً بالإقامة في عتبة الجحيم. قلاعُ اشتهاء الحياة تُبنى حجراً، حجراً وإلّا أصبحت الحياة فرناً لا تُطاق نيرانه.

* * *

أهلي، سكان تطوان، مجموعة من المورسكيين، ومن الوافدين من ضواحي المدينة ومن المدن المحتلة شمالاً وغرباً، ومن اليهود وممّن أعتق من الأسرى والعبيد. كشفشاون مدينة تطوان مدينة للمكلومين، كل العائلات لها شهيد أو جريح أو أسير أو مَن لا خبر عنه. لون الحرب يسود المدينة وقلوب الناس، وهاجس الاستعدادات الدائمة لها يخيم على أرواحهم. من خضم هذا الهاجس كان زوجي المنظري يقول لي:

- دنيانا حرب وحبّ. لنتعلم فنّ الحرب وفن الحياة. الوجود فانٍ، وجميلة هي الحياة، رائعة، فلماذا لا ننحت في ذاكرتنا وقلوب أحفادنا جمالها، ونحن قريباً عنها راحلون... وحده الإنسان من بين الخلائق مَن جعلته الدنيا مجرماً وبانياً، وفي الأخير وحدها كفّة البناء تُرَجّح.

- ما خلق الله الإنسان إلا ليعمّر الأرض، وإن الله ليحبّ الإنسان المعمِّر والباني في أرضه. العمران يمكث في الأرض أمّا العنف والقتل فيذهبان جفاء.

قضينا عمرنا في تعلُّم فن الحرب، لكن الحرب موت والموت يبقى موتاً، لا فن له ولا فنّ فيه، لنتعلم فنون الحياة.

والدي كان يقول:

- وحده العمران يواجه الدمار، وبه نعلن أننا نحيا ونواجه الموت والنسيان.

لأواصل ما بدأه أبي وزوجي من عمران. فكما أبني القلاع

وأرمِّم أخرى للحرب سأعدّ للنفوس مآوي للحسن والراحة. بالعمران والفنون نجسد حبّ الجمال في قلوبنا وأحاسيسنا. فن العمارة محفِّز لذاكرة الإنسان، به سيتذكّر أحفادنا أننا كنا نبني ونشيد رغم كلّ هذا الدمار.

رحم الله الطبيب مُوسَى وهو يردد:

- هذبوا النفوس وأسعدوها. وحدها الفنون والآداب مَن تُذهب طبيعة التوحُّش لدى الإنسان.

الألوان هبة عظمة الله ينيرها بضياء شمسه ونور قمره ليمتِّع بها عباده. إنها زينة الدنيا. لنخضِّب دنيانا بألوان لامعة تقاوم سوادها. لتكن تطوان حمامة بيضاء. دور المدينة وحوانيتها وفنادقها ومساجدها تصبغ باللون الأبيض. الأسطح من قرميد أخضر أو أزرق، واللون النيلي المفتوح لمداخل الدور والأزقة. لتزين السقوف بخشب مُطعَّم برُسوم الأزهار والورود، والأسوار بزليج وبزخرفات، تضاهي الزخارف الأندلسية والفاسية والتركية.

لترسم على الزليج الملون اللامع مختلف الأزهار، ولنملأ الدور والأزقة والساحات بأصص الأزهار والياسمين، ولنغرس الورود بالساحات والحدائق... اغرسوا عنبر الليل، في الليل تتفتح زهوره وتطلق عبقاً يلطِّف من رائحة حلكة الظلام.

لتكن ملابس ونعال النساء والرجال من ألوان زاهية. لننسج حريراً بألوان فاتنة. الحرير يرطب الأجساد فتلين القلوب. اهتمام زوجي والنازحين من الأندلس بصناعة الحرير تابعتُ

طريقه بإصرار. غرستُ أشجار التوت حتى في حدائق البيوت لتغذية دود القز.

رغم معارضة رجالي، أصررتُ في إحدى عمليات تبادل الأسرى أن نقايضهم بمشاتل من أشجار الفواكه والورود، وبمشاتل من أشجار التوت.

لا غرس دون ماء، ولا حياة نعيمة دون ماء كافٍ. من جبل دَرْسَة مددنا قنوات تخترق أحياء المدينة، كل المساجد ودور المدينة ومراحيضها العامة وحماماتها احتوت عيوناً جارية، شبكة من أقنية أشرَفَ عليها خبراء من غرناطة وأهل البلد. حنفيات ماء رقراق في كلّ الزنقات. كان المعلم الفُقَايْ يصرُّ قبل بناء أي منزل أو مسجد على ربطه بقنوات الماء. اشتكى لي مرة تاجرٌ من تأخُّر بناء منزله. وأنا أعاتب الفُقَايْ عن التأخير قال لي:

- لم يكتمل مدّ القنوات في تلك الجهة من المدينة. تذكَّري سيدتي أنّ أول ما فعله القشتاليون حين دخلوا مدننا في الأندلس أنهم منعوا وهدموا الحمامات. وأنت تعلمين أنه لا حياة تُعاش دون ماء.

انشغالي بتعمير المدينة وحماية أهلي عمَّر خواء قلبي. في أيام السلم القليلة عقدت اتفاقات تجارية مع بعض الفرنجة، أعدتُ بناء مراكبنا البحرية وواصلتُ افتداء الأسرى. عمرت انشغالاتي هذه ودفء العيش بالقرب من أمي وابنتي عمروا وحدتي.

- لا شيء تقهر به المرأة غدر الزمان والوحدة سوى الزواج.

تنصحني أمي.

أمي ككل أمّ ما فتئت تذكّرني بوجوب زواجي، وتحثّني على اختيار عريس من بين الرجال الذين أعلنوا عن رغبتهم في الزواج مني. كانت تقول لي، استفيدي ممّا تبقى لك من شباب قبل أن يفتك به وبك الزمان.

أَسِيَّة المدلِّكة كلما استدعيتها لتدلك لي جسدي، كانت تقول لي إنني ما زلت نضرة وشهيّة وعليَّ أن أفكر في الزواج من جديد.

فكنت أقول لها وأنا أفتعلِ ابتسامة:

- إنني قاربتُ الهرم وأنت تجاملينني.

تجاملني من جديد:

- السعيد مَن يدخل بك.

وككل امرأة لم تخنق حلمها بعد، حلمت بزوج فارس يحمل باقة أزهار ويحملني خلفه على صهوة حصانه إلى سماء الصبوة.

وأتاني فارسي يحمل سلاحاً ومدفعاً.

يُقال في مدينتنا إنّ عروساً يافعة في يد زوج ذي «عُمْرٍ كَبِيرٍ» كتفاحة في يد وزير، يشمّها ولا يقضمها.

إنني تجاوزت الأربعين من عمري، فما أنا بفتاة يافعة وربما ما عدتُ الآن بمذاق التفاح الشهي، وأنت أيها الرجل الذي تطلب يدي لستَ بشيخ كبير، وإنك أعلى وأكبر من وزير.

يا رجل، أنا لم تعُد لدي القدرة على تحمل رغبات سلطان يلازم الحروب، ويقارع الكثير من الأعداء، والكثير من أجساد نساء يافعات مملوكات في القصور.

أيها السلطان «أحْمَدْ الوَطَاسِي» فاجأتني كلماتك عند أول لقاء لنا:

- رغم سنين عمرك ما زلتِ بهية، حُسن الأميرات لا يبلى.

أردفت وأنت تحاول أن تضفي على وجهك إعجاباً مبالغاً:

- مُزَيِّنتُكِ ماهرة جعلتك تبدين فاتنة.

رغبت أن أجيبك بأنني واظبت على أن أتجمَّل حتى لا يجف قطر أزهاري وأحلامي. لكنني فضلتُ الصمت في مواجهة قولك الهجين والثقيل عليّ.

كان كلامك الفظّ جارحاً. حاولتَ نمنمته بقليل من الإطراء لكنه بدا لي، ووجهك يلوِّنه مكرٌ، كهبّة عطر على جبل من ريح.

كأنك تنسى أنني أنثى، جرّة مشاعر سهلة التكسير. ليس بزمن بعيد رغبتُ في أن أكسر كلّ مرايا دار الإمارة، حتى المرايا

البلورية ذات الإطارات الفضية اللامعة التي جلبتها من جِنْوَة والتي كنت أحبّ النظر إليها، والمكوث أمامها وأنا أغير ملابسي وأسرِّب لها أدق أسراري و. . . أشتكي لها.

أيام نضارتي كنت أهرب من الدنيا وأهوالها، من نفسي وصدى صراعات العائلة على الحكم وأهرع إلى المثول أمامها، لأقعد أناجي أشيائي الصامتة الناطقة عبرها.

وأنا أكبر، رحتُ أحكي لها، دون كلام، عن عوائد الزمن عليّ وعلى تفاصيل جسدي. . . كنت أطلعها عليها وهي تتغير. . . تتغير. . . تحوُّل كان يفزعني حتى أنني فكرت في تهشيمها، خاصة حين اكتشفت أنني أطلعتها على ما كان عليّ سَتْره حتى على نفسي، وأنني أشهَدْتُها على ما ترغب نفسي في تجاهله ونكرانه.

عبرها تتبّعت غزو الزمن - بإصراره على هزيمتنا وإذلالنا - لأدقّ تفاصيلي خطوة خطوة، وبها كنت أتفقد ما تبقى لي من أَلَقي.

وتعودَ أنت الآن لتذكِّرني بوساوسي وبوقع الزمن علي. . .

أنا تعبتُ أيها السلطان، وأنت ما زلت تتحمّل وتتحامل على الحياة وعلى أعدائك. كثيرون هم أعداؤك، أكثر من أعدائي، البرتغاليون والقشتاليون والتُّرْكُ وعدوك الأكبر سلطان جنوب البلاد الملك السعدي، ثم كان أهلي من بين أعدائك.

مدافِعُكَ لا تبرد حرارة حديدها حتى تعيد شحنها من جديد،

وها أنت تعيد حشوها في مهاجمة أهلي وبلادي شفشاون. . . . ثم تتقدَّم لطلب يدي!

أيها السلطان، ولو تخلّيت عن هواجس جسدي، هل أقبل بك زوجاً وأنت زرعت بداية طريقنا تهديداً ودماء؟ هل أتزوّج رجلاً يسترحمني أهلي بأن أوافق على طلبه ضماناً لعدم ترويعهم؟

أقبلتَ علينا وأنت تُقسم على تدمير مدينة شفشاون وأهلها، لأن أميرها أخي الأكبر مُحَمّد أعلن بيعته وانتصاره للسلطان السَّعْدي المنافس لك في مراكش، بعدما عقدْتَ معاهدات صلح مع البرتغاليين مهاجمي بلادنا، التي هي بلادك. هجمت علينا وكأنك نسيت أن إبْرَاهِيم أخي الأصغر هو مَن مكَّنك من الجلوس على عرش مملكتك بفاس، وأنه لولا دخوله المدينة على رأس ألفين من رجاله ومبايعتك، لما كان عمك أبُو حَسُّون قد تنازل لك عن الحكم وفرَّ عند أتراك الجزائر.

نعم يا رجل، وكأنك نسيتَ أن أخي إبْرَاهِيم هذا قبل موته بسنتين كان لك وزيراً محنكاً، وسيفاً ضارباً، ومفاوضاً بارعاً وصدراً أعظم، وزوجاً لأختك عَائِشة.

عوض أن تواجه مَن يحتلّ مدننا هيأت «حَرْكَة» من آلاف الرجال، وأكبر المدافع، وقدتها بنفسك لكسر شوكة أخي بشفشاون كما صرَّحت. حاصرْتَ المدينة إلى أن هزَمْته، قبل أن يتدخَّل وجهاء المدينة يستعطفونك، ويلتمسون عفوك عنه مقابل أن يعود عن «غيّه» ويبايعك من جديد. كنت ذكياً أيها السلطان

قبلتَ الصفقة واشترطت الزواج من أختِ عدوك، أنا، تأميناً لحكمكَ وأمنك من جهة الشمال.

رجال دولتك طلبوا مني قبولك زوجاً حتى لا تخوض حرباً جديدة على أرضٍ جديدة عليك، ورجالي ترجّوني أن أوافق على طلبك حتى ينجو أخي وأهله من بطشك. قالوا لي:

- اعقدا زواجاً يشابه ما عقده قبلكما بعقود جيراننا الملكة إيزابيلا والملك فرناندو. الملكان جمعهما إراقة دم أهلنا، وأنتما ليجمعكما حمايته.

يخامرني الشكّ في أنك لم ترغب في أن تعقد عليّ إلّا لتذلّني وتذل أهلي، وكأنك تتناسى أن ليلة واحدة، من حنان وإمتاع ممتع لزوجة، تكفي لإذلال جميل لها، مهما كانت قوتها، وأنها قد تكون أنجع من كل حملات الجنود وإبراز الجبروت.

وَصَلَكَ تَمَنُّعِي... فأحضرتَ الهدايا والرقيق والخيول المسرجة مهراً لي.

كنت أودّ أن أردّ ما قدَّمته لي مهراً لأن المرأة الحرّة لا تُباع، لكن بطانتي نبهوني أنه برفضي سأقطع حبل المودة بيني وبينك. قدَّمت لي ألف أوقية من الذهب وضعْتُها في بيت المال، وخيولاً مسرجة ألحقتُها بحظيرة خيول الفرسان، وعشرين امرأة من العبيد وأنت تدري أننا نحرِّر كل مَن يأتينا عبداً، وأن عدداً منهم أصبحوا من أقاربي، ومن بين أبطالي في الوغى، وحراساً يحرسون معي المدينة والأرض والبحر.

رجالي قد لا يستطيعون الانتصار على جيشك، ولكنهم يستطيعون أن يكبّدوه خسائر لم تحسب لها حساباً، لكن يكفي ما نعيشه من تمزيق وإهراق للدماء.

إن وافقتُ على طلبك فسيُعسْعِس الليل داخلي. ستقيِّدني، ستطلب مني ألّا أهاجم الثغور المحتلة وألّا أهاجم البرتغاليين، وستطلب مني أن أمدّك برجالي ليوقِفوا معك مدّ زحف أعدائك السعديين. ستربكني أيها السلطان، فرجالي لا يرغبون في محاربة رجال من ملَّتهم، وأهلي البسطاء لا يحلمون إلّا بيوم ينعمون فيه بالطمأنينة.

* * *

قبلتُ بك زوجاً.

أنا خائفة. قدري أن أعاشر دائماً الرجل في ظروف غير عادية.

يوم عقد القران كان بودّي أن أكون مبتهجة وأنسى ظروف لقائنا. رجل يقاربني عمراً بعينين قاسيتين رقَّت نظراتهما حين رفع بصره إليّ، وقبض على يدي متودِّداً بغير خجل، قرب رجاله وأمام أخي.

رفعتُ نحوك عيني وكأني أقولُ لكَ، تعلَّم أيها الملك أن تصغي جيداً لنور العيون. العيون تتكلم، تنوب عن اللسان فاصغِ جيداً لنور عيني. عيناي ترسمان عزمي الفاتر وأنا أرغب في من يلعقِ ما تخُطّانه من أسى، وفي مَن يوقد عزمي من جديد،

ويُنسيني الحروب وأحداثها الجسام، ومخاطرها الآثمة.

كنت أتمنى لو تودّ معرفة ما يعتمر داخلي، لأقول لك:

- ظمآنة... فاسقيني واملأ جِراري.

إنني ما زلت أتمتع بالكثير من الأنوثة - الناضجة - أمتّعك بها أيها السلطان. الرجل الذواق لا يقيس الأنوثة بالسنين. فتنة قفاطيني، والعطور التي تتضوع مني، ليست محاولة لإخفاء همس غدر الأيام، بل هي زينة لإبراز مفاتن ونضارة أزهاري رغم ما تذوقته من دواهي المعارك، ودسائس الحكم ومحن الترمُّل والشوق، ونار الأسئلة وغياب الجواب.

فكرت:

- لأسعد بما أنا مُقدِمَة عليه.

يوم دخلتنا، ناديت على من تذكّي عزم وحماسة جسد امرأة، يهدِّد الجفاف بواطن أزهاره، ويهدِّده غدر الزمن قاهر اللذات.

عام تلو العام وأنا أمشي على النيران وصهدها يتشعب بين ينابيعي، فكان لا بد أن تتأثر ورودي بالجفاف قبل الأوان. فكرت أن أقول للماشطة مسِّدي ريشي، وادعَكي جلدي بيديك ثم حمِّسيه بكلماتك، لكي يتذكر... يتذكر جيداً... ويرغب...

لا أنكر أن أمواجاً من الشهوة هزَّت مائي الذي كاد يركد، في انتظار أن تحرِّكه وتجريه وتصفيه أنت قطرة، قطرة...

سأدخل بك زوجة يا رجل، فاقطف عصارة نضجي.

لكنك لم تعُر بالاً لسُحُبِ ينابيعي الحالمة بالإمطار، ولا لشهوة ما يملأني من نبات الصبار الحالم بأن ترويه. قبالتي ساعة الجدّ، لم أجدك إلّا رجلاً تعتزّ بسلطنة فحولتك، وأنا ما وجدتها فحولة حين لم تهيئ امرأة في أوجّ النضج للذّتها. كنتَ مهراً جامحاً. كان حرياً بك أن تتذكر أن بين يديك امرأة حرّة، والمرأة الحرة تحتاج إلى عارف ماهر يذكّي سعير نضجها. لكنك كنت جافاً ومغروراً. . . . آلَمْتَنِي.

غصّة. . . طيلة الليل أتمدّد في أرقي وقلقي، وأنت قربي تتمدّد في الشخير بعدما نلت مأربك.

حريّ بالسلطان أن يتسلطن، يتفنّن ويُتقن كل الغزوات. رجل حرب ومراوغ فتن عليه أن يتقن مراوغات الجسد. تمنيتُ لو ينزّ منك ومني ذلك العرق الخفيف عربوناً للذّة الاكتشاف الأول. لكنك ما جعلتني أشمّ أريج معابر الجسد.

كنت باطشاً أيضاً لمّا بطَشْتْ بي فحولتك في الليلة الثانية وأنا لم أتهيأ بعد، وكأنك في غزوة من غزواتك، أو كأنك كنت تقول لي إنك قادر أن تبطش بي كما بطشت بأخي.

ألا تعلم أنّ ليلة واحدة من لذّة يفجّر الرجل مكنونها بين جوارح امرأة، كافية لتحبّه ولتجعلها مطيعة له؟. . . لكنك تلك الليلة ما جعلتني أستحضر لذتي الغائبة. . . ما أشعلتني. . . سايرتكَ واستعنتُ بخيالي لأشتعل لك، فأفرغتَ جمراتك

وصببت عليّ رماداً بارداً فترت منه همتي. . . والتحقت بالنوم.

وجدتك منهكاً بالسفر. . . بالسفر بين أرجاء أجساد حريمك وأنواء الحكم. كنت كعجل قطع قيده ليعتلي بقرة. وأنا أعشق وثبة العجول، لكن في ساحة الحروب، أما ليلتها والفراش ساحتنا، فقد تبيَّن لي أنه قد لا أرافقك يا سيدي إلى مدينة فاس عاصمة ملكك.

دعني يا رجل، فالسيدة الحرة لا تكون رهينة لملك، ولا تذلّ بين يديه وبين مملوكات قصره.

امتحنتُ اللذة معك لليلة أخرى. قلت في المرتين السابقتين ربما أفرغتَ شهوتك ثم استسلمت للنوم من كثرة ما تتعب. تعطَّرت مرة أخرى وتسلَّحت بكلّ ما يجعلني امرأة تَشْتَهِي وتُشْتَهَى. . . كانت الهزيمة بالطريقة نفسها. تأكَّد لي مرة أخيرة أنني لن أرافقك وليس لديكَ من سلاح يدعوني لملازمتك.

قد أكون زوجة غير مطيعة، لكن لا طاعة لمن لا يعرف كيف يجعل المرأة تطيعه. الطاعة العمياء عبودية يا سيدي، ويكفيك ما تملك من عبيد وجواري. لا طاعة دون حب.

لأعود إلى مصالح أهلنا ولأنسى نفسي ورغباتها، فأنا ممّن نذروا حياتهم لنسيان أنفسهم. نعم نسيتُ جسدي حتى عاد وحده المرض والألم يذكّرني أنني ما زلت أملك جسداً.

طلبتُ منك عقد صلح مع السعديين، قلت لك هُم من ملتنا وهدفهم نبيل ما داموا يرومون إخراج المحتلين من ثغورنا.

لكنك رفضت. فقلتُ لك لا تغترّ أيها السلطان فَالمُلْكُ كالريح الجائح، والحكيم من يعرف كيف يتّقي أنواءه.

أقسمتُ ألّا أرافقك. فمَا لي أنا والصراع المدمّر بينك وبين السعديين وبينك وبين أعمامك وإخوتك؟ قتلتم من أهلكم أكثر ممّا قتله محتلو مدننا وثغورنا.

قلتَ لي قبل أن تعود إلى عاصمتك:

- تعالي معي إلى فاس أيتها «المرأة بارباروس» كما يسمّيك الإفرنج تكونين ملكة وسلطانة، أستأنس بمشورتك وأهنأ برفقتك. تعالي معي وتكونين الآمرة الناهية وخادماتك ووصيفاتك عربيات وزركشيات...

أجبتكَ:

- أهلي تحفّ بهم المذابح، لمن سأترك حمايتهم، لمن ستؤول حراسة الثغور بتطوان وتنظيم عمليات الحصار على المدن التي احتلها البرتغاليون ومَن سيواجه خطر القشتاليين القادم؟

أخاف بذهابي أن نمكّن الإفرنج من موطئ قدم ثابت في شفشاون وتطوان، إنهم يتربّصون بنا كأسود جائعة. إنهم يستولون على مدننا الواحدة تلو الأخرى. ها هي سبتة التي احتلت من طرف البرتغاليين قد قُتِل أهلها، واستُعْبدت نساؤها، وها هم يحتلون طنجة وأصيلا والعرائش والرباط وموغادور وأغادير و... لا يمكنني أن أرحل ودماء أهلي عهدة في دمي.

أيها السلطان أرجوك ارحل عنيّ، ودعني أعترف لك أنني ما رغبت في زواجي منك سوى لكي أساعد وأنقذ أهلي وأخي الذي أحبه كثيراً.

* * *

أخي الذي أحببته كثيراً والذي عاشرتُ من أجله رجلاً لا أحبه، يحاصرني برجاله في مدينتي.

أنا السيدة الحرة سليلة الهزائم والخيانات والخسران. كلما أصررتُ على كشف الغمّ عني وعن قومي إلّا وشاء طالعي أن يحتفظ لي بشقاء عظيم، وهذه المرة من أعزّ أقاربي ومن أهلي، من أخي الذي تزوّجت من أجل إنقاذه رجلاً لم أحبه ، ومن صهري عمّ زوج ابنتي.

رجال أخي وصهري المَنْظَرِي يحاصرون مدينتي. جيش بكامل الأسلحة والعتاد وكأنه سيحارب البرتغاليين والقشتاليين دفعة واحدة.

لا تأتي الخيانة الأكثر حرقة إلّا من قريب، ووقعها كان أشدّ مرارة عليّ حين صفعتني من صهرٍ ما قدَّمت له سوى الاحترام والتقدير، وبموافقة أخٍ لي كنت أعزّه.

الشهور التي قضيتها بعد زواجي، بعيدة عن زوجي، كانت أيام بناء وعمران وجهاد ومقاومة. سقطت عدّة ثغور وعدد من المدن والمواقع الجهادية في يد النصارى، وأنا كنت محكومة بأن أبقي مدينتي وكلّ نواحيها صامدة في وجه المهاجمين طيلة

فترات الفتن التي تضرب البلاد والعباد، وبمنأى عن الاحتلال طالما بقيت على قيد الحياة.

أخذني المهاجمون على حين غرة. كنت قد أرسلت رجالي لمباغتة البرتغاليين. لم يكن بالمدينة سوى بعض العساكر. لم أطلب منهم مواجهة عساكر من أهلهم. بان غبار المهاجمين في الأفق فأقفلت أبواب المدينة وأبواب القصبة، لكن إلى متى؟

يهتف الليل بلونه. يقيم العساكر حلقات لترتيل القرآن، ويصطفون في حلقات ذكر صوفية حول المدينة، أذكار كنا نرتّلها لنهيّج شجاعتنا حين نزمع مهاجمة أعدائنا ومحاصرة المدن التي يحتلونها، تُقام الآن ليغزو أخ وصهر قريبتهما.

لنا على أسوار المدينة خمسة عشر مدفعاً. صاحب المدافع قال لي إنه بإمكاننا أن نطال خيامهم بكرات مدافعنا ونشتتهم. رفَضْتُ.

لم يطل الوقت حين هبّت مرافقتي نَادْيَة مرعوبة:

- لقد فُتِحَتْ أبواب المدينة للمهاجمين.

دخلت العساكر تطوان وعلا الصراخ على باب القصبة. الفقيه حَمّادِي يقود مجموعة من سكان المدينة، وهم يلوّحون بما يحملونه من أسلحة برفقة الهاجمين ويصرخون مطالبين بتنحيتي، يطالبون بدمي. حنقي أجنحة تخبطني. لا أعرف لماذا وما الذي اقترفته في حقهم. أهذا جزائي وقد قضيت أجمل عمري متأهبة للموت في سبيلهم؟

شرع البحار عَبْدُ الحَمِيد يخطب في الجماعة بصوت يحرق قلبي:

- لا خير في أمة سلَّمت أمورها إلى امرأة. ولا يمكن أن تكون حاكمة حازمة في مواجهة أعداء تنتمي أمها إلى مِلَّتِهِمْ... هذه الحاكمة ساقطة شرعاً، حين رغبت بأن توحِّد المقابر، وتدفن موتى المدينة من مسلمين ومسيحيين ويهود في مقبرة واحدة...

يضيف في غضب كاسر:

- إنها دائماً تعامل الأسرى من الفرنجة بليونة كبيرة، تطلق سراح نسائهم وأطفالهم ومرضاهم والعجزة منهم دون مقابل. ومَن شابَه أخاه فما ظلم، أليس أخوها إبرَاهيم من أطلق سراح أمير البحر البرتغالي بُوْرتِنْدْ ورجاله دون أن يحصل ولو على كْرُوثَادُوسْ واحد من البرتغاليين كفدية له؟! أنا كنت من بين البحارة الأسرى المحتجزين في سفينته الذين ثاروا عليه وأحضروه أسيراً مع رجاله من بحر قادس إلى مرسى مرتين.

رغبتُ أن أفتح النافذة وأصيح:

- ألستُ أنا مَن قدتُ معركة طاحنة في مواجهة أمير البحر هذا، حين هاجمنا بعشرات من سفنه الكبرى للاستيلاء على مرسى مرتين ومدينة تطوان، فكبّدناه خسائر فادحة، وأرغمناه على الفرار مع بقية رجاله بعدما قتلنا وأسرنا عدداً كبيراً منهم؟ وذلك شهوراً قبل أن يأسره رجالنا الذين كنت أنتَ من بينهم.

وجَّهت كلامي إلى مرافقتي نَادِيَة وأنا أنفث غضباً:

- كل أهالي المدينة يعرفون أنه منذ شهور فقط زوّدت بيت مال الإمارة بفدية من ثلاثة آلاف ريال مقابل إطلاق سراح ثلاثمائة وأربعين أسيراً إسبانياً.

تمنَّيت لو أخرج وأصرخ بهذا في وجههم، لكنني في غمرة قهري فضَّلت السكوت.

تدخل حَمّادِي هاتفاً:

- لا يُعقل أن يحضر سفير أعدائنا البرتغالي لُورِنْثُو دي تَابُورَا، حفل زواج هذه السيدة بالملك الوطاسي، وما أظنّه حضر إلا لعقد اتفاقيات مهادنة وتحالف.

كلمت نَادِيَة وكأنني أجيبه:

- نعم يومها حاول زوجي الوطاسي أن يقنعني أمام السفير البرتغالي بأن نعقد معه هدنة، فأجبته بما أغضب الرجلين:

- لن أوقف الجهاد.

ثم توجَّهت نحو السفير مخاطبة له بلغته الأم:

- أرجوك، قلْ لحاكمكم أن يجلي عساكره عن مدننا حقناً للدماء. ألا يكفيكم ما أخذتم من خيراتنا وخيرات باقي الأمم؟

فنهض الرجل غاضباً وغادر تطوان على الفور.

الفقيه حَمّادِي هو الذي كان يتقاعس عن الجهاد بحجّة اعتلال صحته، ويسرِّب بين أهل القلعة أنني تقاعستُ عن الجهاد

وأبرمتُ هدنة مع الغزاة، لا لشيء، إلا لأنني أحنّ إلى أصولي من أمي النصرانية، ومسايرة لرغبة زوجي الملك.

فكرت:

- لقد أوقفتُ الجهاد احتراماً لزوجي الوطاسي لأشهر قليلة، وعدتُ بعدها أجاهد مع أهلي ضد الغزاة، حتى إن زوجي البعيد عني صار يكاتبني بالمهادنة، ثم ما عاد يراني هو وأتباعه سوى مشاكسة تجرّ عليه من المشاكل ما هو في غنى عنها، فقاطعني.

مرة كان الفقيه قد عاتبني في خطبة صلاة جمعة بمثل ما يكرِّره الآن. حينئذٍ توجَّهت إليه وقلت له:

- ما مهادنة الإفرنج هذه الأيام إلا لبناء قوتنا من جديد، لقد تكبَّدنا خسائر كبيرة لنلملم أنفسنا حتى لا نتكبد هزائم قاضية.

قاطعت مرافقتي تفكيري بانفعال:

- الجشع على الحكم سبب الخروج عليك يا سيدتي. أهل زوجك المنظري وخاصة صهرك الحَسَنْ يرون أنفسهم أحقّ منك في حكم المدينة، وأخوك مُحَمّد يرغب في ضم مدينة تطوان إلى حكمه حتى تتّسع إمارته، كما أن كليهما يعتبرانك سنداً للملك الوطاسي عدوهما اللدود.

عشت أحارب صدى دقات طبول الخوف في قلبي، أهادنها

وأتوسّل إليها لتتحوّل إلى ضربات تلهمني الشجاعة والإقدام حتى لا يتسرَّب إليّ الخوف ومن ثم إلى أهلي، والآن خوف شديد ممَّن كنت أخاف عليهم يلعب بما تبقى لي من شجاعة. مؤلم أن يأتينا الخوف من إخواننا ومن أهلنا، وقرف ممّن يبيح دم أخيه قبل دم عدوه.

تصطلي الشمس وتتكاثر الجموع أمام باب القلعة، يرتعش حَمّادِي وشفتاه تنفث زبداً من الغضب:

- هذه المرأة تخلخل عقلها منذ أن سكنها هاجس الطير، وتخيَّلَت نفسها حمامة بيضاء. المقربون منها يؤكدون أن شيطانِ الحمامة سكنها منذ طفولتها... ولقد زاد خللها منذ أن عَشِقَت خَيْرُونْ وأقامت شاهدة قبر لما ادَّعت أنه بقايا ساقه...

استرسل:

- لن نسلم أمورنا إلى امرأة سكن عقلها شيطان على هيأة طائر، حتى إنها أطلقت اسم الحمامة البيضاء على مدينتنا، وجعلتها شعاراً لها، وختمت بها مراسلاتها.

علت صرخة رجل:

- لن تحكمنا امرأة تنصاع لقلبها أكثر من عقلها.

رغبتُ أن أقول لهم:

- قد تجرِّدونني من كلّ شيء إلّا من قلبي، حاولت أنا ذلك من قبلكم فوجدت نفسي قابضة عليه رغم جماره، به تنكوي ومنه تتدفأ وتتنور.

فاجأني السْعِيدِي، بحّار سبق وأن حارب معي جلّ معاركي البحرية، وقد تقدَّم الجموع ليقول بصوت مرتفع تعمَّد أن أسمعه:

- يوم مقتل القائد خَيْرون، والجماجم تتطاير، والأجساد تحترق، والقلوب تتمزق، كانت هذه المرأة تهشّ على ما تراه حمامة وتصرخ عليها بأن تبتعد حتى لا تحترق. كانت تصيح وتقول، إن احترقتَ من سيبقى للبشر أيها الطير المنتظر، مَن سيحقق السلام والهناء لنا وللآتين من بعدنا؟ وبعدما هدأت بعض الوقت، عاودها خبلها وبدأت تسبّ وتلعن الطير، قبل أن تبدأ في إطلاق البارود على ما توهَّمته حمامة عاقة. ساعتها تيقّنت أنّ مساً من الجن أصابها.

هتافات أخرى ضدي من الباب الجنوبي للقلعة تقضّ ما أحاول خطّه من اطمئنان:

- الحكم للرجال، ما خلقت المرأة إلّا من ضلع أعوج، والضلع الأعوج لا يستقيم.

هتفت الغَالِيَة زوجة المَهْدِي:

- لن تحكمنا امرأة طار عقلها عشقاً لطير متوهم.

خلف كوة من داخل القلعة كنت أسمع كل هذا، أُلْعَنُ وأُتَّهَمُ بأنني هرطقت، ومثلت نفسي بطير، وتماديت وناديت في هلوستي على مَن اعتبرتها المخلصة والمنتظرة، وما هذا سوى ضرب من ضروب الجنون... وباب من أبواب الزندقة...

قال لي رسول المُحَاصِرِين:

- أيتها الحاكِمة تنازلي عن العرش، الحُكم خُلق للرجال وها أنتِ تَرَين أن الناس قد احتشدوا أمام القلعة مطالبين بتنحيتك.

بين الاستسلام والوهن أجبتُ:

- كنتُ أعرف أنّ الحاكم الناجح هو مَن يحتكم إلى خصال وحكمة الأنبياء. لم أرفع يوماً سلاحاً في سبيل الحكُم، ما رفعته سوى في وجه مَن ما انفكوا يسلبون أهلي هناءهم، وأهلي الآن يسلبون هنائي.

لم يجِد جواباً أفضل من:

- النساء ما خُلقت أيتها السيدة للحُكم والحروب. اختاري منفاك. يعرض عليك اللجوء إلى فاس أو مراكش أو إسطنبول. إلى أين تودّ السيدة اللجوء؟

انكسرت الأجنحة والقلب ينسحق، جيش جرّار يمر عليه بقرقعة أسلحة من حديد... تمنيتُ لو أنني أعرف طريقة تجعلني أتحمَّل هذه الهزيمة التي تمحقني. نفسي تمانعني ولا تدعني أهتدي للرضا بمُرِّ القضاء. الحزن الكاوي يذويني. سألت الله الموت، قلت بموتي أختم أحزاني، لكنني مؤمنة بحكم الله ولا أملك الشجاعة التي تجعلني أقرر موتي وزمنه. قلبي تدوي في أركانه استغاثات روح مغدورة.

يكرر السؤال:

- إلى أين تودّ السيدة اللجوء؟

حيرة مستعصية تمنع عني جواباً سريعاً. قلت في همهمة، تعكس انهزامي، ما رأيته جواباً شافياً:

- حيث تصفو روحي من لياليها المظلمة، وترتاح وتتهيأ لاستقبال خالقها وبارئها...

رميت بكلمات أخفِّف بها ما بي:

- لا تنتظروا خيراً من أمة تُجهز على مَن فكر بدلاً منها، وعانى في سبيل هنائها.

فرفضتُ أرضاً:

- أفوِّض أمري إلى الله... إليه ألتجىء... وإن كنت قد أخطأت فإنني أعتذر، وأنا لم أنوِ يوماً الإساءة لأحد.

صمتي محفوف بصراخ ينفجر في أعماقي، لله وحده أشتكي.

صرت كالخربة المهجورة تصفر فيها الريح، ريح من مغص بين ضلوعي. أجدل ضفائر التردّي وجبل من الهمّ يقصم صبري. ألن تنتهي جمرة الفتن إلا بانتهاء جذوة الحياة؟

خاطبتُ نفسي: لن أجد ملاذاً أهرب إليه ممّا ينخر عقلي من تفكير وأحلام متفسخة سوى جبل شفشاون. سأرحل إلى حيث سأتقفي صوت النور، وترانيم الماء والسماء. سأصعد إلى أعلى قمة في الجبل لأترقب الحمامة، من هناك ستأتي لتخاطبني وتطهر الأرض وأدرانها بماء النور.

رَحَّلُونِي بكل أنواع القسوة. أخذوا أملاكي وجردوني من كلّ ما أملك حتى من الحلي والقفاطين. نزعوا مني سيفي ودرعي وبندقيتي. قلت لهم دعوا لي أسلحتي للذكرى، بها جاهدتُ. لكنهم رفضوا.

أسرج الحصان للرحيل يركب معي همي. . . سيعاودك الربيع يا جبال وسهول تطوان وعذابي أنني لن أكون شاهدة عليه. يا فضاء الله كم بخس الإنسان من جلالك وزرع فيك من بذور الهلاك!!

عندما تهدأ الحروب وتتشتت الجيوش ويسقط أو ينتصر الحكام، تظلّ جمار مخلّفاتها وفواجعها وحدها تحرق ما تبقى منا.

ارتكنتُ في زاوية المسجد الذي بناه والدي بشفشاون. بخلوتي أبتغي خلوة الروح. قلتُ دعوني في خلوة الطير لعلّها تعيدني من منافي الروح. . .

في عزلتي ها أنا بعيدة عن كلّ التقوض الذي أحاط بي. استنجدتُ بعزلتي، علّها تسعفني عزلتي، في البحث عن تبرير لما حدث ويحدُث.

أياماً عصيبة كانت حياتي.

قضيت معظم أيامي متهيئة للموت كمحكومة بإعدام أنتظر تنفيذه كل يوم. كأني عشت على ظهر أسد يسابق بي الريح، ما أنا قادرة على التوقف والنزول، ولا أنا قادرة على الثبات متشبثة بزغب ظهره، وما كان حال أهلي بأحسن من حالي.

زوجي الأول سفح دمه البرتغاليون، وخطيبي الذي أحسبه زوجي الثاني مزّق أشلاءه القشتاليون وزوجي السلطان أحمد الوطاسي قتله مسلمون منافسون، لقد مات موتاً مفجعاً بعد استسلامه للسلطان السَّعْدي الذي سمَّمه مع أربعين فرداً من أسرته، بعد ما حاصره في مدينة فاس وهزمه.

ألم أقل لك يوماً أيها السلطان أن المُلْكَ كالريح الجائح، والحكيم من يعرف اتقاء أنوائه؟ أخي مُحَمّد حاكم شفشاون الذي انقلب عليك وعليّ بعد زواجنا بشهور، فرّ إلى الشرق مع عائلته منذ سنتين، بعدما انقلب عليه ابن حليفه السلطان السعدي عبد الله الغَالِبْ الذي تحالف مع الإسبان ضد الأتراك قاتلي أبيه، وتعهّد للإسبان بتنحية أخي، ألدّ أعدائهم، فهرب الأخير ولا خبر عنه إلى اليوم.

دوامات للقتل. تفوح رياحها بروائح الدماء ومخلفات التهلكة.

حروب من أجل المنافع والمصالح وحروب باسم الدين...
أكانت الديانات السماوية رسائل حب أم نفير حروب.

منذ صِبانا تعلمنا أن الديانات كلها تحثّ على حبّ الإنسان

لبَني جنسه، جميعها تدعو إلى عبادة الله وتدعو إلى السلام. أمي كانت مسيحية وأسلَمَت ولم تذكر حتى وفاتها يوماً الدين المسيحي بسوء. النبي عيسى طالب أتباعه بأن يحبّوا أعداءهم. الإسلام دين سلام يدين القتل بغير حق، والوصية السادسة من الوصايا العشر للتوراة تقول، لا تقتل، قتل الإنسان كراهية لله.

كل الوصايا الإيمانية تقول لا تقتل، وباسم الإيمان يتمّ القتل. باسمه تشرَّع شريعة الدم، وتدمّر عذوبة التهليلات من على المآذن، وترنيمات الكنائس، وابتهالات البشر، وناموس المحبة.

كيف للحياة التي لم يخلقها الله لا لهواً ولا عبثاً، أن تضمحلّ على عبث الحروب؟

يعذبني السؤال. أبحث عن جواب يكون بلسماً فأجد رباً واحداً وبشراً جاحداً.

* * *

ترحالي في خط زمني كان متعباً، فمنذ بدايتي واقتراب النهاية مرَّغني في الخوف والألم والرغبة المبتورة. بين حربٍ وحربٍ حربٌ، وبين الهلعِ والهلعِ هلعٌ، وبين وحدتي ووحدتي حبٌّ مجهض وخُسْران، وبين العقل والجنون عتبةُ جنون. الجسد فارقه رونقه، والعقل مشوش ومكدَّر وراحة البال يمن حُرِمت منه.

قلبي بلون الفحم وروحي تهدّني، هي الجلاد والضحية. صعبٌ أن تجلد نفسك بنفسك.

يوم بدأت أحلامي، بدأت أسئلتي رذاذاً من حصى جارح، يتعثّر عليّ الجواب ولا تتوقف... أسئلة أدركتُ اليوم كم قصّرت من طفولتي، من براءتي ومن سعادتي... ومن حياتي. كانت حياة ملؤها التخبط مع حمى الأسئلة والأجوبة خجولة، غامضة، وكسيحة.

يكاد يغلب عليّ الشر فيسلبني آدميتي، ثم أحنّ إلى دمعي وندمي.

عقلي المرهق بتهاويل الشر ومصائبي يلغو. أعذره، فحين لا نجد جواباً لأسئلة قضينا عمراً نسألها، وكلّ لسان من نيرانها يحرق ضلعاً منا، نحتمي باللغو والهذيان، نحتمي بخديعة نزوّق بها أحلامنا. ليتني تدثّرت بعباءة بهاليل يحترفون السذاجة. وحدهم البهاليل يتقبلون المعاني ولا يطرحون أسئلة، يرتلون أذكارهم ويصنعون البلاهة ثم يستسلمون لها في بلادة. يُسْنِدُونَ هناءهم بِحِكَمٍ متوهّمة بَلْهَاء ويسعدون.

ألا يبحث الإنسان عن الحكمة إلا لتخفيف أثقاله ومحاولة تفسير ما لا يفسّر؟ أنا كثيراً ما بحثت عن حِكَمٍ تُعينني على فهم ما لم أفهمه، وعلى تقبُّل ما لم أستطِع تقبله. ها أنا وصلت أرذل العمر ولم أكتسب حكمة ما أستند إليها لكي أتقبل خيانة الأحلام.

أيتها الحمامة.

أمضيتُ عمري مطوّقة بزوابع من الهلاك، وأنت بعيدة قريبة مني، تركبين الريح وتطلّين عليّ غير مبالية... تهذين بهديلك، ولا يوماً هديتني أو واسيتني. ... لم يكن كلامك سوى لغوٍ...

أوهموني بأنك آتية لتخلصينا فتهتُ طيراناً خلفك. قيل لي ارتقي إلى قمة الأعالي، هناك تتحقَّق وتتجلى الرؤيا وتطيب الرؤية ويطربك التجلي، طلّ وطيب وأريج للأرواح المتعبة مثل روحك. وصدَّقت ما أوصوني به. تدثرت بك حلماً وعزمت أن أقتفي أثرك قلب السحب الداكنة التي تمنع عني رؤيتك. وطرت حالمة برؤية قبة عشك، ومطوقة بحلم القبض عليك ومعانقتك.

تكفل بي الريح لحافاً يحفّ عريي... ما أسعفني عزمي ولا ما تلحفت به من إيمان. كنت أرتقي مثقلة بأحمال على أنياب من عظامي. هرِمَت خطواتي في الطريق وشاخ حلمي وأنت تختالين في سمائك هانئة قريرة العين. وها أنا وصلت إلى هرمي وما وجدتُ غير ضباب أسود، وصدى هادر لهديلك يبرهن لي أنك مررتِ من هناك.

... ولم تعفِني من طيفك. كلما حلمتُ بأن أنسلخ من حلمك، أجد نفسي مربوطة إليك بحبال لا ترى، توثقني بشدة إليك. وكلما عزمتُ أن أنساك إلّا وحضرت تخبطين وترفرفين

بلظى جناحيك فوق رأسي وأمام عيني، تستثيرينني وتحومين حولي مستلطفة ودي... تمنينني بلقائك ولا تأتين.

يا بنت الهديل أوهمتني بالإيمان بك وبقدرتك أن تنثري بجناحيك ريحاً من عطر المحبة على القلوب. أوهمتني أنه بكِ ستنفرج عني وعن الدنيا النكبات. كنت تزينين لي خطواتي في متاهاتي خلفك، تسرين وتعرجين، ترسمين لي نهايات المنتهى. صدَّقت مكرك أيتها الماكرة اللعوب واقتفيتُ خطواتك كالحمقاء وأنت أفعى بأجنحة، فكنت كلما اقتربت منك إلا وتعيدينني إلى بدايات البداية، وأنا أخبط خلفك بجناحين من شمع. تذيب الشمس جناحي، يتهاوى حلمي ومحاولتي التحدي، فأتهاوى مضرجة بخيبتي. خادعة كنت.

أيتها المتربِّصة بنكساتي وذوبان جناحي، كوني بطاعة وحكمة الهدهد، استقي الحكمة من طير الأنبياء، وبشِّرينا بخبر يقين يريحنا. لا تجعلي شهوة الحياة تضمر عندي وعند الإنسان.

يا ورقاء، لا قلب أكثر تعباً لصاحبه من قلبٍ سكنه الحب والحرب، وحضورك المتواري ووجهك الغائب الحاضر... عشى بصري ورقَّ سمعي وأنت غير مبالية. خائنة.

لماذا خنت وفاء أجدادك؟ ألمْ تكوني رمز الأمن والأمان؟ بشّرت النبي نوح وأهله بأرض الأمان وهو يبحر بأجدادي بسفينته هرباً من الفناء. انتهى الطوفان وعاد البشر الإخوة إلى التقاتل، وعدتِ أنتِ إلى فرجتك وصمتك الغامض والمثير والمريع.

أخُلِقْنا من أجل أن نزهق الأرواح ونتقاتل ببلاهة الوحوش؟

أذقنا بالحرب آلاماً لشبيه لنا وأخٍ لنا، أو أذاقها لنا شبيه وقريب لنا. كسونا شرورنا بكلمات لتحفزنا ولتبرير تقتيلنا، وتزويق أسماعنا وأسميناها بطولة وشجاعة وكل منّا يدفن قتلاه ويؤبن شهداءه. مَن هو الشهيد يا رب ومَن فينا الشهيد؟

تكلَّمي... في خرسك عذابي أيتها الملعونة... جننتني... أيها الطير اللعوب..

أنادي طيف جدتي:

- جدتي يا مبشِّرتي، أين وعد حمامتك أم أنها ليست سوى طائر بوم يعشيه ضوء النهار؟

تقف عليَّ جدتي حانقة في منامي ويقظتي، تتفحَّصني بنظرات تحاسبني، تقبض كعادتها بيديها على يدي:

- ابلعي غضبك، قد تُغضبين المخلصة. من دون حضورها فجعنا الماضي ويفجعنا الحاضر، ولن يكون الحال أفضل في الآتي والمستقبل. من دون حضورها الأمس أمس واليوم أمس والغد أمس.

حضورها وكلامها تحقيق لحلم العبور من وحشية الإنسان إلى إنسانيته. ونحن حلقة وصل بين الإنسان الهمجي والإنسان السامي الآتي...

قلت لها:

- لا أمل. إنني مرهَقَةٌ جداً. عقلي يكاد يطير إلى الجنون.

أجابتني في كامل هدأتها:

- كل عقل فَطِنٍ يطير إلى الجنون، والعقل الذي لا يفكر أن يطير ويحلق عالياً عن الدنيا وما سطّرت له ليس هو بعقل.

أعدتُ شكواي:

- جدتي أنهكني طول الانتظار.

بحزم عادت تشدّ على يدي:

- أوقفي هديلك الحزين. ألا ترين أنّ الظلام يطارد كلّ يوم ضوء النهار، وفي كل صباح يجدِّد الأخير مقاومته، يلملم شتاته ويكتسح السماء من جديد، وعظمته أنه يعود بالقوة والبهاء نفسهما كل شروق رغم أنه متيقن من اندحاره آخر النهار.

لِمَ تتشاءمين، اصغي إلى نور العشب عند الفجر، تمعَّني في الدنيا مرتع الجمال. من غير المستساغ أن تكوني حزينة وعينيك تتمليان عظمة الله من خلائق وألوان وماء وسماء. تمعني جيداً فالأرض والسماء والأنجم مِلْكَ عينيك.

كفاك رضوخاً للعذاب. قوّي رغبتك في العيش ولا تدعيها تستكبر عليك. اصنعي بستان جنتك في قلبك وصدرك أنى سرتِ.

- جدّتي تولّهت بالحمامة وهي تتجاهلني.

- كم من أشياء نعشقها ونتفانى في حبها، وهي لا تتوانى في إذكاء عذابنا.

أطعتُ الجدة. استسلمتُ لسطوة الطير، استعطفته بإحساس العاشق الولهان:

- كنْ ملاكاً حليماً وحقِّق حلمي بأن أمحو يأسي ببهاء حضورك.

مخلصنا، أيرضيك أن نظلّ قابعين تحت هجير حارق في انتظار زمن مفقود لن يأتي؟ الانتظار احتراق.

عدتُ أترجى الحمامة بدلال:

- أيتها الحمامة بلونك الأبيض الملائكي المقدَّس عبر العصور، أيتها الجليلة، السامقة في الأعالي كم أنتِ رائعة، رائعة ولو ملأت أيامي ببرازك ونحنحة هديلك ونكرانك...

تذكرت والدي وهو يقاوم جرعات الموت ويقول لي:

- للأسف يا ابنتي سترثين سكّة كانت سكتي، الحرب هي داؤنا وبها دواؤنا.

قلت له:

- ووعد مخلصتنا بالسلام يا أبي؟

- لا تثقي بوعدها، ناموس الحياة لا يفي بوعده. ما الحمام سوى طائرٍ غاوٍ يغوي البشر، وليس كلّ مَن عاهد وفى... لا تثقي بالخديعة وتهدري عمرك خلف اطمئنان مزيَّف.

نفرتُ من الذكرى وهرعتُ بقلقي إلى طيف جدتي:

- الحمامة البيضاء وعدتني في حلمي بزيارتنا وكنس أوحالنا، لكن أبي . . .

هدأت ما بي:

- اهنئي فطَيْر الحمام أوفى من الإنسان، إنه بحرٌ من الأمان.

وآملت خيراً وقعدت أنتظر طلّتك من جديد وكم طال انتظاري.

* * *

زمنٌ مديد وأنا أسامر خراب الحرب، وها أنا الآن أعدو بعيداً هرباً من كل شيء. . . كأني الغراب يئنّ في مضجعه. شوق إلى البراءة يجرفني، إلى البراءة والحرية من كلّ القيود. لو خيِّرت في إعادة حياتي لتمنَّيت أن أغرِّد مع اليمام في الحقول، وأهشّ على معزي وأسوق بقراتي إلى الوادي لترتوي. أودّ لو أني لم أكُن سوى راعية غنم في كونٍ خالٍ لا يجمعني فيه معه بشر، لا أشمّ سوى عطور الأعشاب، ولا أسمع سوى صوت الريح والمطر، وخرير الماء وطنين النحل. . .

مكسوة بالحنين. حنين غامض. . . حنين غريب إلى شيء بعيد ومستعصٍ هروباً ممّا أنا فيه ألتجيء إليه.

وأطللتِ عليّ أيتها المنتظرة أخيراً في زاوية مسجد شفشاون بعدما ترجّيتك عمراً. وكأنك خاطبتني:

- ها أنا أتيتك بمأوى لحنينك الغامض.

وأنت تهمين بمواصلة الكلام، فتحت قلبي وزغردت ولو أنك جئت متأخرة. فقذفْتني بهديرك من خلف الضباب... وقصفتني...

- عليك اللعنة أيتها الحمامة الشمطاء، أنا أنتظر درر الكلام منكِ وأنت تقصفينني بتشجؤاتك! أدعوك إلى الله.

انتظرتك مخلصة فأتيتني بنظرات تخوّفني أيتها المنذورة للخراب... كأنك الطائر المفترس «بوجَغْجَغَا» المقيم في الربع الخالي من دنيا السماوات والأرض. طير عيشته مرهونة بقتل الفريسة ومضغها ومن ثم بصقها ورميها ليفترس من جديد. لقد دعا عليه كل الصالحين في الأرض، كما كانت تقول جدتي، فظلّ محكوماً بالجوع طوالَ أيامه غير المتناهية لا يتوقف عن القتل والسفك والمضغ وعدم القدرة على البلع، ليعود يفترس من جديد. طائر ملعون يظلّ أبد الدهر يعذبه الجوع فيعذِّب أهل الأرض. هذا ما كانت تحكي لي عنه جدتي في الليالي الباردة.

غرابة نظراتك تشي بأنك سيدة الحضور والغياب وبأنك الموت.

يا طائراً في لون البياض الصامت الأخرس، في لون الكفن، تقدّم، فأكبر حكمة أكسبتني الأيام هي أن لا أرغب في

الفرار منك يوم تأتي لأخذي. فما أتيتني إلا حرية، فتعالي يا حورية الغياب خذيني إلى الحرية الكبرى. فإنْ كانت حياتي في أن أتقلب في مثل هذا الجحيم الرحب، فمن الأفضل أن أركن في قبر ضيق لعلني أرتاح.

الآن أحسّ أنني أخذتُ كفايتي من هذا العالم، وأنّ الوهن الأخير يسامرني. كم هي أطرافي باردة يا حمالة البرد.

بحثت عن سرّ المعنى لأسئلتي وشكوكي، وسأرحل والأسئلة ثابتة، والجواب حيران يتقلب من معنىٍ إلى آخر.

يا ربي ها أنا إلى ملاقاتك سائرة وأنا خائفة، فلا أنا راغبة بالحلول بين يديك خشية ورهبة وحيرة وإجلالاً، ولا أنا راغبة في أن أظلّ أتخبط متمسّكة بجدران من حياة أليمة واهية. سألقاك يا ربي ظمآنة، بقلب بالمرارة يلهج.

يا ربي بخيوطٍ من نور رحمتكَ أتشبث، حين لم تعُد سريرتي سوى شواظ من نار تحاسبني.

يقاطعني صدى صوت جدتي وهي تردِّد:

- كوني فخورة بما استطعتِ تحقيقه. ارفعي رأسك. لم تعملي سوى ما كان مطلوباً منك، لا نرتكن في زوايا المساجد للمسكنة والاستعطاف، بل ليتوهّج نور حلمنا. لقد ارتقيت إلى عتبة باب الأنوار.

هديلي يتلعثم، تمدَّدت استعداداً للرحيل الأخير... لا رغبة ولا طاقة لتناول الأكل أو الدواء. وحدهما ابنتي وحفيدتي

لم يفارقاني منذ أن استفحل مرضي، عدلتا رأسي على المخدة، ونواحهما يجرحني ويُعلِمُني بحلول الوداع. تسكب ابنتي في فمي قطرات من الماء. بين صحوي وغيابي عن الوعي لفحني عطر كريح الجنة، وقف طيف جدتي عند رأسي، لمعت نظرات عينيها في دعة، مدَّت يدها عانقتني لتقول لي آخر ما سمعته:

- يا حرة لا تُخَرِّفِي. ما أتاك الآن هو الموت، أما حمامتنا المخلصة فلم تحضر بعد، وأحفادنا من بعدنا ملزَمون بانتظارها.

يا حرة الحرائر ستهاجرين هجرتك الأخيرة، بعدما هاجرت من نفسك وانتمائك وحلمتِ بأن تنتمي إلى الإنسان خليفة الله في أرضه. كنت سيدة نفسك وسيدة الدنيا وسيدة الحلم، ويكفيك فخراً أنك حلمت بأن يكون انتماؤك هذه الكتلة البشرية بعيداً عن أي اختلاف، وأنك حلمت بأن تواجهي بريشك مخالب هويات خادعة مميتة.

«أيوبة» الانتظار الحقي بي قريرة العين، عودي إلى ربك مطمئنة النفس راضية مرضية، ارتقي إلى النور. على عزف النور ترقص أرواح الحرائر من الحمائم. لقد منحتِ للحلم أكبر سلطان عليك ولا يرجى خيرٌ من إنسان لا يعرف قَدْرَ الأحلام.

من بين مخالب الموت قلت لها بصوت خفيض:

- الأحلام تتلاشى كالريح، وأنا كنت أصغر بكثير من الأحلام التي لازمتني. كان الحلم بالحمامة كبيراً عليّ.

- الرزايا الكبيرة تُحَتِّمُ الأحلام الكبيرة. ما يشفع لنا تضحيتنا هو إيماننا بأنها ستحلّ يوماً بين البشر، ولو ستأتي متأخرة.

- جدَّتي صلبني ألم الانتظار.

- ما يحبِّبني فيك أكثر أنك بنيت من دفء قلبك سماء حلمك، وأنك لم تيأسي رغم انجراف الأحلام وطول الانتظار... نحن فداء للزمن الجميل الآتي.

لم يعُد يسعفني سوى ذكر الله، أرتِّله بصوت مرتفع حتى يرتفع صدى الذكر على بكاء أقاربي. ابتسمتُ ابتسامة حزينة فيها تسليم، حاولت أن أرفع رأسي، خاطبت المحيطين والمحيطات بي والأحرف تتعثر في فمي:

- ادعوا لي بالرحمة. حرِّروا ذاكرتكم وتذكّروني. الموت الحق هو حين يغيبنا ويطوينا النسيان. ليعلم القادمون كم من حرب فرضت علينا، وكم حاربنا الخوف، وكم حاربنا دون خوف، وكم أحببنا رغم كل هذا التقوض... وكم حلمنا.

تمتمت، يا ربي إنني أبتغي رضاك وعلى بابك واقفة يا أرحم الراحمين.

افترَشَت حفيدتي الأرض أمامي وهي تولول. أشرتُ عليها بالوقوف والصمت، ثم شرعتُ أتلو عليها ما كانت تتلوه عليّ جدتي منذ طفولتي من حين إلى آخر حتى حفظته عن ظهر قلب،

وأنا أدعو الله أن يمكنني من أن أتمّم وصيتي قبل أن يقبض على روحي:

- منذ الأزل وأسلافنا من بني دمنا يُحَدِّثُونَ عن حمامة الحمائم المنتظَرَة، يقولون إنها يوم تظهر للعيان، من على قمم الجبال أو من خضم أمواج الليل والبحر، أو من بين زوابع الهلاك وعواصف المخاطر الآثمة، وتتكلم، وتنطق درراً، تتوقف شرور الحروب عن افتراس فرح القلوب، ويكفّ انتماؤنا عن حرقنا، يعمّ الدنيا نور رباني ويُنْثَرُ الحب. قوة الحبّ ستسبي القلوب، فتتخلص من وحشيتها، ويبلغ البشر سن الرشد ويحيا في سلام في انتظار العبور إلى السلام الأبدي.

ثابري على الحلم فناموس الحياة وعدنا بأنها ستحضر، ستنطق وحياً ليحرّر الإنسان ممّا يكبل به صدره من أحقاد وخدع. خدع له قاتلة وهو يستميت على حراستها وإحيائها...

أنا قضيت عمري أعانق رؤياها وأنت منذورة لمواصلة الحلم.. هيئي لها حضناً في قلبكِ، حلقي وارتقي وراءها، تقرّبي إليها فحتماً هي ضاقت بصمتها، وستتحرر ممّا في جوفها، ستستجيب لاستعطافنا. ستأتي، ستأتي ببشائر الزمن الآتي.

كوني سيدة حرة، ثابري على حلمك... لا يرجى خير ممّن لا يعرف قدر الأحلام... طوبى للحالمين ولو صلبوا... طوبى للحالمين....

البشير الدامون

هديل سيدة حرة

هديل سيدة حرة رواية تحكي عن أميرة استثنائية في التاريخ العربي والإنساني، تحمّلت شوائب الحكم في زمن تكالبَت فيه المصالح الأوروبية والعثمانية والصراعات الداخلية على بلدها وأهلها.

كانت مُلزَمةً لمواجهة حربٍ فُرضت عليها حتى لا تُقتَل أو تُسبى مع أهلها. وكلما عقدت العزم للدفاع والجهاد إلّا واعترضت طريقها أمها – التي كانت مسيحية الديانة قبل أن تسلم – وخاطبتها:

– كيف تخرجين لقتال أبناء خالاتك وأخوالك؟

روايةٌ عن مسار الأميرة المتفرّد، عن علاقتها بالحرب والقراصنة والبحر والتجارة والعمران والإرث الأندلسي، وعن تمرُّدها وأفراحها وحبّها وخيباتها، وعن حلم لقائها بحمامة بيضاء...

حكاية أميرة شاهدة على مدى بشاعة حربٍ شرسة ظالمة مُقنَّعةٍ بقناع الدين. قادت المعارك وانتصرت، إلّا أنها ظلّت، أثناء رحلتها المريرة، تعاني من «هزيمة ما بعد الانتصار».

إنها رواية أميرة جديرة بحَمْل اسم «السيدة الحرة».

لوحة الغلاف للفنان إتيان دينيه

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

السعر: 50 درهماً مغربياً
ISBN 978-9981-72-016-9